جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

قسم اللغة العربية

موجّهات القراءة في النّصّ القرآني

- دراسة في تلقّي سورة الكوثر بين القدماء والمحدثين -

رسالة مقدّمة

إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية/ لغة القرآن وآدابها

كُتبت من قبل الطالب:

أحمد جاسب سعيد

بإشــراف

أ.د علي محمد ياسين

آب- 2023م **محرم-1445هـ**

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

(صدق الله العلي العظيم)

(سورة الإسراء: الآية9)

ترشيح الرسالة للطبع

نظرًا لإنجاز فصول ومباحث الرسالة الموسومة بـ (موجهات القراءة في النص القرآني – دراسة في تلقي سورة الكوثر بين القدماء والمحدثين) لطالب الماجستير(احمد جاسب سعيد عباس) فأني أرشحها للطبع .

التوقيع:

المشرف : أ.د.ولي محمد ياسين

مكان العمل: جامعة كربلاء/كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ٢٠٢٢/٥/٢

إقرار المشرف

أشهد أن الرسالة الموسومة بـ (موجهات القراءة في النص القرآني – دراسة في تلقي سورة الكوثر بين القدماء والمحدثين) التي قدمها الطالب (احمد جاسب سعيد عباس) قد تم إعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في لغة القرآن وآدابها .

التوقيع:

المرتبة العلمية : استاذ

الإسم: علي محمد ياسين

مكان العمل: جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ٢٠٢٢/٥/٩م

بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة.

التوقيع :

الاسم: أ.م.د حامد شهاب احمد

التاريخ: ٢٠٢٢/٦/٢م

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس لجنة المناقشة وأعضاؤها أننا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة بـ (**موجهات القراءة في النص القرآني – دراسة في تلقي سورة الكوثر بين القدماء والمحدثين**) وناقشنا الطالب/ـة (**احمد جاسب سعيد عباس**) في محتواها وفيما له علاقة بها ونعتقد أنها جديرة بالقبول بتقدير(جيد جداً) لنيل درجة الماجستير في لغة القرآن وآدابها.

التوقيع:

الاسم : أ.د. نورس ابراهيم عبد الهادي

المنصب في اللجنة: رئيساً

التاريخ: ٢٠٢٢/٧/٢٦

التوقيع:

الاسم: أ.د. هناء جواد عبد الساده

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ:

التوقيع:

الاسم: أ.م.د. احمد راهي سعدون

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ: ٢٠٢٢/٧/٢٦

التوقيع:

الاسم: أ.د. علي محمد ياسين

المنصب في اللجنة: عضواً ومشرفاً

التاريخ:

صدقت في عمادة كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

التوقيع:

الاسم: أ.د.ضرغام كريم كاظم الموسوي

العميد وكالة

التاريخ: ٢٠٢٢/٨/١٦

الإهـداء

إلى كلِّ من يسعى إلى رضى الله وغفرانه في زمن كَثُرت به الفتن..

- والديَّ حُبًّا وعرفانًا..

- من عزَّز الله بهم عضدي فكانوا نعمَ المعين بعد الله –تعالى- إخواني وأخواتي..

- من حملوا سمة القداسة رسالة في هذه الحياة، أساتيذي الأفاضل..

- من كانوا خير سند، أصدقائي الأحبة..

- زملاء الدراسة جميعًا، وفقهم الله لما يُحبُّ ويرضى..

أهدي ثمرة جهدي.

الباحث

الشكر والعرفان

بعد أن وصل البحث مراحله الأخيرة أشعر بأنّ هناك من يُطّوقُ عُنقي بأفضَاله، وهم كثُر، وأوّل من أقدّم لهُ شكري وامتناني بعدَ الله –تعالى- ذي الجود والإحسان؛ هو الأستاذ الدكتور (علي محمد ياسين) الذي تكرّم بالإشراف على هذه الرسالة ولم يبخل عليّ بوقته، فكان بذلك نعمَ الأب، والأستاذ الناصح والمرشد الحفيّ بتلاميذه، فقد بذل مجهودًا بالغًا بمراجعة البحث وتوجيهه ليصل إلى أحسن ما يرام بملاحظاته السديدة، وإنهُ ليعجز لساني عن شكرِ معروفه، أسأل الله تعالى أن يجزل له المثوبة، إنّه سميع مجيبٌ.

كما أتقدّم بالشكر الجزيل إلى جميع أساتيذي الذين تتلمذت تحت أيديهم قديمًا وحديثًا في حياتي الدراسية، فجزاهم الله عني خيرًا، وأدامهم الله ذخرًا لجميع تلامذتهم.

خلاصة البحث

تقوم هذه الدراسة الموسومة بـ**((موجّهات القراءة في النصّ القرآني -دراسة في تلقي سورة الكوثر بين القدماء والمحدثين))** على مسلمّة بسيطة، مفادها: كيف نفهم اشتغال الموجّهات النصّية والمحيطة بالنصّ في توجيه الدَلالة القرآنية عند قراءة النّصّ وفهمه وذلك بالاستناد إلى المدوّنة التفسيرية التي تعاملت مع النّصّ القرآني ممثلًا بسورة واحدة تعدّ من أقصر سور القرآن الكريم، وهي سورة الكوثر.

وقد أخذت الدراسة على عاتقها تفحّص تلك القراءات المتعددة التي انبثقت من إحالة لفظة (الكوثر) في هذه السورة عند كلّ مفسّر من المفسرين –عينة الدرس- وانطلاقا من ثقافة المفسر وعقيدته التي كان لها الدور الأكبر في استثمار الموجّهات الخارجية المتمثلة بـ(عنونة النصّ، ومكان النزول، وأسبابه) والموجّهات الداخلية ممثلةً بـ(المستويات الأربع) التي تشكّل –بالضرورة- كلّ نصّ لغوي وبضمنهِ النصّ القرآني.

وقد توزعت هذه الدراسة على ثلاثة فصول، كان الأوّل منها يضطلع بمهمةِ التعريف بسورةِ الكوثر من خلالِ إماطة اللثام عن كلّ ما يتعلق بها بهدف الإحاطة المعرفية، لأنّ هذه المهمة هي أول مهام التّلقّي أما الفصل الثاني فقد تناول موجّهات القراءة عند المفسرين القدماء الذين أخذنا عينة منهم تغطّي اتّجاهات التفسير ومدارسه المعروفة، فمن الرازي رأس المدرسة السنّية إلى الطبرسي كبير مفسري الشيعة وانتهاء بالزمخشري المفسّر الوسطي العقلاني المعتدل. وكذا كان بالنسبة إلى الفصل الثالث الذي تناول امتدادات هدة التيارات في العصر الحديث وصولًا إلى ما تمخض عن هذه الدراسة من نتائج نوجز أهمّها بالآتي:

1- كلّ ما في القرآن الكريم من نصوص وسور وعبارات قصيرة كانت أم طويلة داخلة في باب الأعجاز الذي تحدّى به القرآن أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله، ومن ذلك الباب هذه السورة التي تعد أقصر سور القرآن الكريم.
2- شكّلت نصوص القرآن الكريم بما فيها نصوصه القصيرة (كسورة الكوثر) مجالًا خصبًا للتفاعل مع القراءات المتعددة عبر الأزمنة المختلفة، لما يشتمل عليه هذا النّصّ من

قدرة على عدم النفاد، ومن طاقة تعبيرية ومضمونية متجددة على مرّ العصور جسدتها متون التفاسير وحركتها التي لم تعرف التوقف والنضوب.

3- أكّدت سورة الكوثر أن النشاط الذهني الخاص بتلقيها هو نشاط يخضع لمؤثرات عديدة يوجّهها النصّ إلى المتلقي الذي يلتقط ما موجود من إشارات في النص بحسب ثقافته ووعيه وفكره العقدي الذي يحدد مسارات القراءة بحسب ما يمتلك من إملاءات وضوابط معرفية خاصة بهذا التوجّه.

4- إنّ القراءات المتعددة بموجّهاتها الخارجية والداخلية هي نتاج نصّ ثري لا نهاية لدلالاته، وإن أي قراءة من هذه القراءات لا تلغي اختها ، لأن هذه القراءات تكمل بعضها بعض وصولا إلى قراءة كلية تتكامل بمجموع الجهود التفسيرية القديمة والحديثة.

قائمة المحتويات

التسلسل	العنوان	الصفحة
1	**الواجهة**	
2	**الآية**	أ
3	**الإهداء**	ب
4	**الشكر والعرفان**	ت
5	**الخلاصة**	ث-ج
6	**قائمة المحتويات**	ح-خ
7	**المقدّمة**	5-1
8	**التمهيد : في حدودِ مصطلحات الدراسة**	21-6
-	موجّهات القراءة:	10-7
-	النصّ القرآني:	15-10
-	التّلقّي:	21-16
9	**الفصل الأوّل: سورة الكوثر.. مدخل أوّلي تعريفي**	51-22
-	المبحث الأوّل : بين يدي السورة	35-23
-	المبحث الثاني : في وجوه إعجاز السورة	51-36
10	**الفصل الثاني:موجّهات القراءة والتّلقّي في سورة الكوثر عند القدماء(الزمخشري، والطبرسي، والفخر الرازي)**	94-52
-	• إضاءة: في الحركة التفسيرية للقرآن وأبعاد تلقّيه:	55-53
-	**المبحث الأوّل: الموجّهات الخارجية عند القدماء:** عنوان السورة مكان النزول وزمانه أسباب النزول	78-56

-	**المبحث الثاني: الموجّهات الداخلية عند القدماء:** - المستوى الصوتي - المستوى الصرفي - المستوى التركيبي - المستوى الدلالي	94-79
11	**الفصل الثالث: موجّهات القراءة والتّلقّي في سورة الكوثر عند المحدثين(محمّد عبده، ومحمّد الطاهر بن عاشور، والطباطبائي)**	130-95
-	**المبحث الأوّل: الموجّهات الخارجية عند المحدثين:** عنوان السورة مكان النزول وزمانه أسباب النزول	115-95
-	**المبحث الثاني: الموجّهات الداخلية عند المحدثين:** -المستوى الصوتي -المستوى الصرفي -المستوى التركيبي -المستوى الدلالي	130-116
12	**نتائج البحث**	133-131
13	**المصادر والمراجع**	144-134
14	**الخلاصة باللغة الإنجليزية**	A-B

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاةِ والسلام على أشرفِ الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين صاحب المقام المحمود واليوم الموعود الأحمد النبي الأمجد أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين إلى يوم الدين. وبعد:

ما زال القرآن الكريم منذ نزوله المبارك قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا على نبينا الأكرم، وحتّى يومنا هذا باعثًا على التدبّر والفهم وعلى القراءة الفاعلة، فعلى ضفافه الوارفة نشأت الدراسات والمعارف المتعددة التي أثرت المكتبات العربية والإسلامية قديمًا وحديثًا، وكانت نصوصه المقدسة من أكثر النصوص الباعثة على التأمل والتقصي والتأويل لما تشتمل عليه هذه النصوص من بُعدٍ روحي – تقديسي، ومن بُعدٍ بلاغي – تواصلي.

ومن هنا عمدت هذه الدراسة الموسومة بـ**(موجّهات القراءة في النص القرآني، دراسة في تلقي سورة الكوثر عند القدماء والمحدثين)** إلى محاولة غير مسبوقة باتخاذ نص من نصوص القرآن (سورة الكوثر) المعروف بقصره وقلة ألفاظه ميدانًا للاشتغال المعرفي عبر رصد بعض متون التفسير التي أفرغت جهودها في مسألة قراءة سورة الكوثر وتلقيها قديمًا وحديثًا بدراسة نماذج معيّنة رُوعيت فيها عند المفسرين القدماء والمحدثين مجموعة من الأمور والقواعد التي قد تبعث في نفوسنا الطمأنينة على سلامة اختيار هذه المتون التفسيرية ميدانًا للرصد والتحليل.

وقد تجلّت أهمّ هذه الأمور عن طريق اعتماد طبيعة التفاعل المنبثق عن الفعل الكامن في نصّ سورة الكوثر، وردَّ الفعل الناشئ عنه عند المفسرين (عينة الدرس) هو تفاعل محكوم برصد التأثير الذي يحدثه النّصّ المختار (سورة الكوثر) في متلقييه من المفسرين متعددي المشارب، وهذا التأثير خاضع –بالنتيجة- للمرجعيات الثقافية والإيديولوجية التي توجّه قارئ النّصّ وتحدد طبيعة استجابته وتلقيه، ولذا تنوعت المتون التفسيرية من الأصول مرورا بامتداداتها المتعددة عند اللاحقين بين اتجاهات ثلاثة ارتأى الباحث أنَّها تغطي الاتجاهات الفكرية التي هيمنت على جهود النشاط التفسيري، وكانت هذه الاتجاهات تعبيرًا عن طبيعة الحواضن الثقافية التي اتَّكأت عليها متون التفسير -عيّنة الدرس والتحليل- فكان

اتجاه المدرسة الإماميّة بموازاة مدرسة أهل السنّة والجماعة، وبمجاورة الاتجاه العقلاني المحايد، والمعروف بوسطيتهِ واعتداله. ولعلَّ هذا ما جعل الدراسة تنطلق من المرحلة التاريخية التي شهدت ازدهار علم التفسير متخذة من تفاسير الزمخشري (ت 538هـ) والطبرسي (ت548هـ) والفخر الرازي (ت606هـ) عينة تنطلق منها هذه الدراسة، ولا سيّما أنّ هؤلاء المفسرين عاشوا مرحلة زمنية متقاربة، وخضعوا لظروف تاريخية متشابهة.

ثمَّ كان لابدَّ لهذه الدراسة من توسيع مداها الزمني وصولًا إلى لعصر الحديث مع المحافظة على عدالة التوزيع بين الاتجاهات الفكرية الثلاثة المشار إليها، والموزّعة للتوجّهات والمنطلقات العقدية المغذية للمفسرين الذين تعاملوا مع سورة الكوثر -متفقين أو مختلفين- في تحديد مسار الدلالة الذي تحيل عليه لفظة (الكوثر) بتأثير ما سميّته (موجّهات القراءة) التي انقسمت بدورها إلى قسمين، هما: موجهات تقع خارج النصّ لكنها تسهم في تحديد المسار الدلالي للفظة (الكوثر) بدرجة أو بأخرى، وموجّهات نصيّة داخليّة تقع ضمن النسيج اللغوي للنصّ مسهمةً هي الأخرى في تعيين الدلالة المرادة بحسب طبيعة النشاط الذهني المحرّك لاستجابة المفسّر بوصفهِ قارئًا من طراز خاص.

وقد كان الهدف من الدراسة هو محاولة الكشف عن الفعل الكامن في النصِّ القرآني ممثّلا بسورة الكوثر القصيرة التي تعكس القراءات المتوالية لها -المتفقة والمختلفة- تنوع مستويات الفهم والتأويل عند المتلقين المتعاقبين، وهذا -بحدِّ ذاته- شكل رغبة ملحّة عند الباحث لمعرفة الكيفيّة التي يتحدّد عندها الفهم والتّلقّي، فضلا عن رغبة معرفة الآلية التي يبرز عن طريقها موقف الاتفاق والاختلاف بين قرّاء النصّ الواحد عبر العصور على ما في ذلك من صعوبة وعسر لم تيسّره الدراسات السابقة التي قاربت سورة الكوثر بصورة مغايرة عن الطريقة التي انتهجها الباحث في بحثهِ هذا، ومن هذه الدراسات السابقة، مثلًا: كتاب إعجاز سورة الكوثر لجار الله الزمخشري، وكتاب تفسير سورة الكوثر للسيد جعفر مرتضى العاملي، وكتاب عجائب سورة الكوثر لمحمد عبد السلام، وهي كتب تدور في فلك واحد، كما توحي عنواناتها الواضحة.

وقد كان المنهج الذي اتبعه الباحث في هذه الدراسة منهجًا يقوم على الوصف والتحليل مستعينًا بمنطلقات نظرية التّلقّي التي لم أسقطها إسقاطا على النصِّ المدروس، ولا سيّما فيما يتعلق برصدِ الفعالية التي يتوخاها قارئ النصّ بغية تسيير القراءة إلى الوجهة التي يرتضيها أو يرجّحها على غيرها، وقد حتمت آلية هذا المنهج أن تقسم الدراسة على تمهيدٍ وفصولٍ ثلاثة وخاتمة تتضمن أهمَّ النتائج المتوصّل إليها، وعقبَ ذلك قائمة تتضمن المصادر والمراجع المستعان بها في هذه الدراسة.

وقد تحدثتُ في التمهيد عن المصطلحات التي يدور البحث في فلكها دون الاهتمام بالأبعاد الفلسفية والمعرفية لهذه المصطلحات؛ لأنّ ذلك ليسَ من شأن هذه الدراسة التي ركّزت على تهيئةِ القارئ لمحتواها عبر تيسير مدلول المصطلح مع المحافظة قدر الإمكان على قيمتهِ التداولية داخل حقله المرجعي العائد إلى نظرية التّلقّي المعروفة، أمّا فيما يخص فصول الرسالة، فقد جرى مع المشرف (أ.د.علي محمد ياسين) -الذي أدين لهُ بترشيحي لهذا الموضوع الذي اختاره مشكورا، وخصّني به دون سواي-، تعيينَ نماذج مختارة للدراسة في هذا البحث تمثلت ببعض متون التفسير القديمة والحديثة التي تفاعلت مع النصّ القرآني ممثّلا بسورة الكوثر من منطلق كون هذا التفاعل لا ينشأ من فراغ، بل من سنن وقواعد تسيّرها محددات معروفة تكون حافة بالنصِّ نفسه مرة، وتكون منبثقة من جوهره، أي عبر تشكيله اللغوي مرة أخرى، مع الحرص على توافر عنصري الحركة والتجاذب بين المتون المختارة؛ لِما في ذلك من إغناء للقراءات المتّفقة والمتعارضة يثري فصول البحث ويدفع للمتابعة والاستقصاء.

وتأسيسًا على ما سبق، فقد قسمّتُ **الفصل الأوّل** على مبحثين، الأوّل: تحدثتُ فيه عن إطار السورة بشكلٍ عام، أمّا الآخر: فقد أختص ببيان بعض الوجوه الإعجازية في السورة. وبوصف ذلك مدخلًا ضروريًا للإحاطة بما يتعلق بهذه السورة المباركة قبل إجراء فعل القراءة والتّلقّي الذي اختصّ منه **الفصل الثاني** (موجّهات القراءة والتلقّي في سورة الكوثر عند القدماء) بمبحثيه: الموجّهات الخارجّية والمقصود بها (عنوان السورة ومكان النزول وأسباب النزول) في قراءة المفسرين: جار الله الزمخشري بوصفه قارئًا حياديًا يغلّب العقل،

ومن ثم الشيخ الطبرسي الذي يعتلي صدارة مفسري الإمامية، وفخر الدين الرازي الذي انتهج رأي السنّة والجماعة في سفرهِ الكبير. أمّا المبحث الآخر فتولى الاعتناء بالموجّهات الداخلية، والمقصود بها (نسيج النصّ اللغوي) ممثلا بمستوياتهِ الأربع المعروفة: المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي، وهي مستويات، وإن لم تكن معروفة في زمن التفاسير المذكورة كما هو حالها اليوم؛ فقد حاولنا تحديد ملامح حضورها في هذه التفاسير قدر الإمكان.

أمّا **الفصل الثالث** (موجّهات القراءة والتّلقّي في سورة الكوثر عند المحدثين) فقد تضمن مبحثين مشابهين مع اختلاف زمن كتابة المتون التفسيرية المشتغل عليها، الأوّل منها: تفسير جزء عمَّ لـ(الشيخ محمد عبده ت1905م) بوصفه قارئًا حياديًا معاصرًا يغلّب العقل والروية، والثاني تفسير التحرير والتنوير لـ(محمّد الطاهر بن عاشور ت1973م) الذي سار على خطى أسلافه الماضين من أهلِ السنّة والجماعة، والثالث هو تفسير الميزان لـ(محمد حسين الطباطبائي ت1983م) الذي يعدّ من أشهر مفسري الإمامية المعاصرين.

ولا تخلو رحلة أي باحث من صعوبات تكتنف بحثه، ولاسيّما إذا كان البحث في القرآن الكريم الذي له ما له من سمة القداسة والخصوصية وما يستلزم ذلك من تأنٍ ودقة ، ثمّ ما يضاعف ذلك صعوبة تحليل النصوص وخطورة البت بمراميها النهائية، وهذه قضية بحاجة إلى حذرٍ شديد ودقة متناهية. ومن الصعوبات الأخرى هي قلة الرسائل والأطاريح في مثلِ هذه الدراسة التي عالجت قضية ذات بعدٍ نقدي تأمّلي لم يأخذ حقّه من الدراسات الكافية حول القرآن الكريم.

وأخيرًا، فإنّي لا أدعي التمام و الكمال لهذه الدراسة، فهما لله –تعالى- وحده، ولا أدعي لنفسي إيفاء البحث حقّه، فالعجز والتقصير هما سمة كلّ من يقصد القرآن الكريم موضوعًا لدرسه وتحصيله؛ لما خصّهُ الله تعالى بأسرار لا تنقضي عجائبها، راجيًا السماح لي عند الخطأ، وحسبي صدق النيّة، فقد بذلت غاية جهدي ليخرج العمل بأحسن صورة، فإن أصبت فذلك من نعم الله –تعالى- وإن أخطأت فتلك هي عادات البشر.

التمهيد:

في حدود مصطلحات الدراسة

في حدود مصطلحات الدراسة:

لا بدَّ للباحثِ في كلِّ دراسة من ضبطِ المجال الذي يعملُ فيه، والمفاهيم الفاعلة التي يعتمدُ عليها، وهنا ينبغي لي التعريف بمصطلحات البحث؛ لضبط حدود الدراسة التي تسمح للقارئ في الخوض بالمجال المعرفي الذي تنتمي إليه هذه المصطلحات وصولًا لمداليلها التي وردت في متن الرسالة، وكالآتي:

أولًا: موجّهات القراءة :

قبل الخوض بتحديد مصطلح (الموجّهات) علينا معرفة دلالة مصطلح (القراءة) المضاف إلى الموجّهات والمقترن بها في هذا البحث، فالقراءة مصطلح يتناوب تداولًا في بعض الترجمات العربية ومصطلح التلقّي الذي سنخصّص لإيضاح فهمنا لهُ السطور القادمة من هذه الدراسة.

وقد ظهر هذا المصطلح (أي القراءة) بظهور نظريات التّلقّي والتأويل في مرحلة ما بعد الحداثة (1960م-1980م) التي أعادت الاعتبار للمتّلقّي أو القارئ بعد أن تسيّد المؤلف المناهج القديمة (السياقية)، وبعد أن أزاح النّصّ الاهتمام الخارجي القديم مع ظهور البنيويات الحديثة[1]. ولمّا كان النّصّ –أيّ نصّ سام، بشريًا كان أم سماويًا - مجالًا للخلق والابتكار يشتمل على إشارات مصاغة بفرادة تعبيرية تلفت إليها الأنظار؛ فإنَّ مجموع هذه الأشياء والعناصر المكملة لبعضِها تحضر في أثناء فعل القراءة ممارسة سلطتها وحضورها في توجيه القارئ، ولا ينبغي أن يفهم هذا التوجيه بوصفِ نوعًا من القسر الذي يمارسه النّصّ على القارئ، بل إنَّ النّصّ والقارئ يدخلان في علاقة تكامل تُنجز إتمام النّصّ وتكميله عن طريق فعل القراءة الخلّاق[2].

أمّا موجّهات القراءة فهي من أقربِ علامات الصلة بين النصّ والقارئ وضوحًا، لأنّها تعني أول ما تعني وجود شعاع متجه من النصوص إلى القارئ، يصاغ ضياؤه من كِسَرٍ

1- ينظر: نظريات القراءة في النقد الأدبي، جميل حمداوي، دار الريف للنشر، ط2، المغرب، 2020م:ص8.

2- ينظر: سؤال النصّ -أسئلة القراءة، د.خالد سليكي، مطبعة دار المناهل ، (د.ط) المغرب، 2008م: ص89.

من هنا وهناك، تشكّل بمجموعها -صغرت أم كبرت- مؤثرات تقود إلى طريق قراءة عامة، وليست تفاصيلًا مُلزمة كما قد يتوهّم أحيانًا، وإنّ القول بالممارسة النقدية (لا التحليل النصّي) يفترض الانقياد إلى ما تفرزه النصوص من مزايا وقوانين عند التفاعل معها بالقراءةِ من دون ضغط المعطيات القبلية، بل بالارتكاز إلى معطيات نصّية داخلية (ظاهرة أو غائبة) تكون لها قوّة الموجّه العام الذي يقود باتجاه معين من دون تفاصيل أو خطط، فإزاء خطط النصوص ثمّة خطط للقراءة، وإزاء قصد المؤلف تقف نيات القارئ، ولكن مساحة النصّ هي مجلى هذا الصراع[1]. ومعنى ما سبق أنّه لا يجوز التنبؤ بوجود معنى نهائي للنّصّ، وإنّما معناه ناتج عن فعل القراءة وفاعليتها التي تتولد بين النّصّ وقارئه وبين أفق القارئ وأفق انتظاره*[2]. وتُفهم الموجّهات – كما اتفق أرباب الأدب والنقد، ولا سيما الحافة بالنصِّ منها- على أنّها أغلفة خارجية أشبه ما تكون بالقشرة التي تحيط باللب، والحديث عنها سيكون شبيهًا بالالتهاء بما هو خارجي| ثانوي؛ وعليهِ فإنَّ وجودها واستحضارها ضمن أُطر قراءة الأعمال الأدبية على وفق نظريّة التلقّي لا يمكن أن يكون وجودًا لا قيمة لهُ، وإنّما هو وجود ضروري لإتمام عملية القراءة لأهمية هذه الأغلفة في التوجيه الدلالي والنّصّي الذي سينتهي إليه القارئ بوحيٍ من تأثير هذه الموجّهات.[3]، وإذا كان الكلام السابق يصدق على النصوص الأدبية، فإنَّ الخاصية في النصّ القرآني لا يمكن أن تكون زائدة أو هامشية، ولذا فأنّ الموجّهات هي تطوير لمفهوم إطار القراءة أو ما يحف بها وهي تقود القارئ إلى غور النصّ بوصفها خطوة أولى للتعرف على البؤرة أو المركز أو المولّد الذي يقوم بتشغيل النصّ، وردّ جزئياته إلى الأطراف، وذلك لا يمكن أن تقرّه

1- ينظر: مجلة الأقلام ،الممارسة النقدية من النص إلى القارئ مدخل أولي من بعض موجّهات القراءة، حاتم الصكر ، العدد 11-12، تشرين الثاني - كانون الأول 1993:ص50.

2- ينظر: فعل القراءة وإشكالية التواصل الأدبي: الأستاذ محمّد خرماش والأستاذ المصطفى عمراني، عالم الكتب الحديث دار اربد، ط1، الأردن، 1442هـ -2020م:ص40.

* المقصود بأفق الانتظار: هو تصوّر قائم في ذهن القارئ مسبقًا بفعل تأثير النصوص التي يكون قد اتصل بها من قبل، فهو إمكانية جديدة تُحركه النصوص التي يتلقّاها القارئ حاضرًا، ولذلك تساهم في تغييره. ينظر: الفكر النقدي الأدبي المعاصر، د. حميد لحمداني، دار مطبعة أنفو-برانت، ط3، المغرب، 2014م:ص167.

3- ينظر: مجلة الأقلام ،الممارسة النقدية من النص إلى القارئ، حاتم الصكر: ص50.

الأطر الحافة بالنصوص التي تدعى (أطر القراءة)، إذا ما توقفت عند التسميات العامة نحو العصر والغرض وما إلى ذلك[1]. فالقراءة فسحت الاحتمال –إذن- لوجود نصوص أخر بموازاة النّصّ المهيأ للقراءة، "وقد يضاف إلى جانب النصّ المحيط نصًّا فوقيًّا تندرج فيه المراسلات، والحوارات، والشهادات، والتعليقات، والمراجعات المتصلة بالنّصِّ، وهي بمجموعها تقع خارج النّصّ لا بمعنى قيامها بعد إنتاجه، بل بمكوثها بعيدًا عن القراءة كفعل نهائي، في حين تدخل عناصر النّصّ المحيط (العنوان وسواه) في فعل القراءة ذاته وترتد إلى داخل النّصّ لأنّها بطبيعتِها ذات وجود نصِّي وإن بدت هامشية أحيانًا"[2]. تبيّن مما تقدّم أنّ القراءة عديلة الكتابة في إنتاجِ النّصّ وتفعيله، وقد تفوقها في استشفاف مراميه، وتحقيق أبعاده المتعددة، لأنّها تشرك معرفة القارئ بمعرفة الكاتب، وتسقط خبرات الأول على تجارب الثاني، فتحصل إنتاجية جديدة ومتجددة، ولعلّ في قول الإمام علي -عليه السلام- واصفًا حال القرآن الكريم مصداقًا لذلك عندما قال في خطبة له مشهورة: "وهذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ"[3]، وإنّ ما نستنتجه من مقولة الإمام علي –عليه السلام- هو أنَّ الرجل (أي القارئ) هو من ينتج الدلالة من النّصّ، وإنَّ توليد هذه الدلالة وإنتاجها مرهونان بالمقدرة العقلية والذهنية التي تختلف بين رجل وآخر، أي بين قارئ وقارئ آخر.

وقد يسأل سائل: ما طبيعة هذه الموجّهات التي تفعل فعلها في توجيه القارئ وتحييده عن معنى دون معنى؟ والجواب: إن الموجّهات التي تتحكم بالقراءة قد تأتي من خارج النّصّ، كالعنونة التي تقابلها مسميات السور القرآنية، وكالمتعلقات الأخرى المحيطة بالنصّ والحافة به، وتمثّل في النّصّ القرآني مناسبة النزول ومكانه وزمانه وما ورد من أخبار بخصوصه، وإذا كانت الموجّهات الخارجية هي كل ما يفيض به وعاء النّصّ، وهي ليست من ضمن نسيجه؛ فإن الموجهات الداخلية هي الموجهات النابعة من النسيج اللغوي الذي

1- مجلة الأقلام ،الممارسة النقدية من النص إلى القارئ، حاتم الصكر: ص50.

2- ينظر: فعل القراءة وإشكالية التواصل الأدبي: ص31.

3 - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية ،ط2، قم المقدسة، 1967م: 103/8.

تُشكّل النّصّ من مجموع مستوياته، صوتًا وصرفًا وتركيبًا ودلالة، وهذا ما أردنا رصده في هذه الدراسة لمعرفة طبيعة هذه الموجّهات التي تسيّر تلقّي المفسرين للنّصّ (الكوثري) سواء بدوافع القراءة القادمة من خارج النّصّ ذي الكلمات المحدودة، وذي البؤرة المشعة فيه وحجر أساسه، أي لفظة (الكوثر) أم بدوافع القراءة التي يضغط باتجاهها نسيج النّصّ في حركته التي لا تعوّل على الخارج، وكما تبدَّى ذلك من خلال أنماط التّلقّي ومستوياته التي مثلها وعي المفسرين بقصدية اللفظة في متون التفسير المختارة للأسباب التي لمَّحنا إليها.

ثانيًا: النّصّ القرآني:

قبل الشروع في الحديث عن النّصّ القرآني لا بدَّ للباحث من أن يوضح ما المقصود في النّصّ؟ والنّصُّ في اللغة: نّصّ الشيء أظهره ورفعه، "وفلان نّصّ أي استقصى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده، ونّصَّ الحديث ينصّه نصًا، إذا رفعه ونّصُّ كلِّ شيء منتهاه، ويقال: رفعك الشيء كنصّ الحديث، وفي الحديث "إذا بلغَ النساءُ نصّ الحقاق"[1]، وجاء في تاج العروس: أصل النص: رفعُك للشيء وبيانه فهو من الرفع والظهور، ونّصّ الحديث ينصّه نصّا، وكذا نصّ إليه إذا رفعه ، ونصّ ناقته ينصّها نصّاً إذا استخرج أقصى ما عندها من السير، ونصّ الشيء نصّاً أقعدها على المنصّةِ، بالكسر لترى وهي ما ترفع عليه كسريرها وكرسيها، وقد نصّها فانتصت هي والمنصّة، بالفتح الحجلة على المنصةِ، وهي الثياب المرفعة، والفرش الموطأة، ونصّ المتاع: ينصّه نصًا إذا جعل بعضه على بعضٍ[2]. والنصّ اصطلاحًا: "بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات، وقد ترتبط هذه العلاقات بين جملتين أو أكثر من جملتين"[3]. وبمفهوم آخر فإنّ النصّ وحدات لغوية طبيعية منضدة ومنسجمة ومنسقة، أو هو مدونة حدث كلامي

1- لسان العرب ، ابن منظور: مادة نصص.

2- تاج العروس في جواهر القاموس، محب الدين الزبيدي، تحقيق علي شيري، دار الفكر، ط1، بيروت، 1425هـ 2005م:ص368-369.

3- اصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي ،ط2، بيروت،1420هـ 2000م:ص35.

ذي وظائف متعددة[1]، أو هو "سلسلة من العلاماتِ المنتظمة في نسقٍ من العلاقات تنتجُ معنىً كليًا يحملُ رسالة، ودراسة هذه العلامات وتناسقها يفضي عادة إلى بناء النصّ"[2].
أمّا النصّ القرآني فهو سياق لغوي معرفي يحمل أحكامًا وعلومًا وتشريعات أوحاها الله تعالى إلى رسولهِ الكريم بواسطة أمين السماء جبريل(عليه السلام) لإحياء القلوب والعقول والأنفس والأرواحِ، صحّحَ العقائد الفاسدة، والمفاهيم المغلوطة وألغى التقاليد الجائرة والأباطيل الموروثة، وفنَّد آراء المشركين والمنكرين[3].

فالنّصّ القرآني رسالة الله تعالى الخاتمة لجميع الرسالات، والذي نزل على صدر النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين إلى خير أمة أخرجت للناسِ أجمعين الأمّة الإسلامية، والأمّة الشاهدة على الناسِ[4]، فهو نصّ شامل لا يوصف بلنسبيّة التي يرضخ لها الكلام البشري، لأنّه نصّ صادر من ذات إلهية تتّصف بكلِّ صفات الكمال، فقد تتمظهر فيه صفات الجمال والجلال التي استوجبت لله -عزّ وجل- من الحكمة والعدل والرحمة والعلم والعزة والعظمة، وغيرها. وهو بذلك "يمتلك جميع خصائص النصّ الكامل من حيث الترابط والتماسك"[5].

ومن خصائص هذا النّصّ أنّه جاء خطابًا للعقل والقلب، ليتحدّى الأنس والجن كما قال تعالى :﴿**قُل لئِنِ اجْتَمَعَت الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[6] ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، كما في قوله تعالى:

1- ينظر: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، محمّد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، 1412هـ 1992م:ص120.
2- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، الدكتورة خلود العُموش، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن، 1429هـ 2008م: ص19.
3- ينظر: التعسف وسوء الفهم للنص القرآني، حسين علي الهنداوي، محاضرة ألقيت في صالة اتحاد الكتاب العربي في رحاب كلية التربية في جامعة دمشق ، منشورة على موقع نور:-http://noor book.com/g7mehc
4- القراءات الجديدة للقرآن الحكيم، قراءة محمد عابد الجابري، محمد كنفودي، دار افريقيا الشرق، (د.ط) ، 2016م:ص6.
5- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، الدكتورة خلود العُموش:ص98.
6- سورة الإسراء :88.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم من دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. وكان معجزًا من وجوهٍ عدة، إذ قال الخطابي في إعجازه: "إنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق الرسل، فالقسم الأول أعلى درجات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه، والقسم الثالث أقربه، فحازت بلاغة القرآن من كلِّ قسم من هذهِ الأقسام حصة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة"[2]. لذلك حظي القرآن بالدراسة والاهتمام فقد ملأ على المتقدمين والمتأخرين مشاعرهم وحظي بعنايتهم وأخذ جوهر قلوبهم ونال من حرارة أفئدتهم، فضلًا عن تصوره التام للوجود ورؤية شاملة لكينونة الإنسان في الزمن ومعرفة شاملة بالكون والحياة[3]. ومن منزلة النّصّ القرآني أنَّه أصبح أكثر النصوص في التاريخ إلهامًا وتأويلًا وموقعًا لصراع الفرق والمذاهب[4]، لأنَّ له سلطته المهيمنة على القارئ[5]. وعلى الرغم من أنَّ كلام العرب لا يخرج عن الشعرِ والنثر غير أنّ القرآن يطرحُ جنسًا أدبيًا فريدًا من نوعهِ، كما قال طه حسين: "ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثر، كما أنّه ليس شعر، إنّما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم، فهو لم يقيَّد بقيود الشعر، ولا النثر، لأنّه مقيّد بقيود خاصة به لا توجد في غيره، وهذه القيود يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بالنغمة الموسيقية الخاصة، فهو ليس شعرًا ولا نثرًا، ولكنه كتاب أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيم خبير، كان وحيدًا في بابه لم يكن قبله ولم يكن بعده

1- سورة البقرة :23.

2- إعجاز القرآن ، أبو بكر محمد بن الطيب ، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، ط5، مصر ، 1997م:ص15.

3- ينظر: تلقي النصّ القرآني في دراسات المحدثين- سورة الفاتحة مثالًا- علي جعفر، رسالة ماجستير، إشراف د.علي محمد ياسين، جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية: ص10.

4- ينظر: سلطة النص قراءة في توظيف النص الديني، عبد الهادي عبد الرحمن، دار ابن سينا للنشر، ط1، الإسكندرية،1998م:ص71.

5-ينظر: تأويل القرآن سلطة القارئ أم سلطة النص، حمزة فاضل يوسف، جامعة القادسية، العددان(1-2)، المجلد 7، 2008م:ص15.

مثله"[1]. والنّصّ القرآني ليس لزمان دون آخر، ولا لناس من دون ناس، فهو ثابت والناس متغيرة بتغير الزمن، لا يبدأ ولا ينتهي، فنحن أمام نصّ لا يسمّى، ولا تأذن معاييرُ الأنواع الأدبية بتسميته، إنّه نصّ لا يتلقّى معياره من قواعد ومبادئ محدّدة، إنّما معياره داخليٌ فيه[2]. إنَّ القرآن وإن كان بذاته نصًّا ثابتًا مقيمًا على أمرٍ لا يتغير إلّا أنّ فهمه فيّاض متغير يتجدد على الدوام، وبالطبع فإنّ كلِّ عصر يُنتج فهمه القرآني الخاص به بعيدًا عن نتاج بقية العصور بما في ذلك عصر الصحابة والتابعين وميراث السلف، من دون أن يعني ذلك بالضرورة تجاوز الدلالات الوضعية المباشرة لعصر النصّ ذي الصلة بقواعد اللغة وقيود النزول والقطعي الثابت من السنّة، وغيره مما نقَّحته علوم القرآن على مرّ العصور[3]. وما نجده من تعدد قراءات النصّ في العصر الواحد فقد يرجع لأسباب قد تتعلق بشخص المفسر وبيئته، أو الطريقة التي اتبعها في التفسير أو نتيجة أدوات الإثبات التي اعتمدها في التفسير، لذا قد تتعارض آراء القراءة فيما بينها[4]. وهكذا، ما دام أنّ النصّ القرآني نصّ خاتم للرسالات السماوية، ونصّ جمال، ونصّ رحمة[5]،"وقد تفاعلت معه مجموعات التلقّي عبر صيرورات زمنية متجددة بكيفيّات مختلفة، حسب اختلاف الأنظمة المعرفية، واهتمامات وتطلعات المتلقّين، خصوصًا في أزمنة التأويل المتعاقبة"[6]، فهو ذو حضور دائم يمتزج فيه البعد الجمالي بالبعد البلاغي لتوصيل المقصود إلى نفوس المتلقّين[7].وقد اختص النصّ القرآن من دونِ سائر النصوص بمجموعةٍ من الخصائصِ الجمالية المعجزة التي منها قوة البيان وسحره، والانسجام اللفظي والتماسك النصّي والإيقاعيّة التي تحددها دقة التوزيع الموسيقي بين الحروف والكلمات والتراكيب مما جعل النفوس تهتزُّ لسماعهِ،

1- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، ط1، مصر، د.ت: ص25.

2- ينظر: النص القرآني وآفاق الكتابة :ص29.

3- ينظر: المعاصرة القرآنية رؤية على ضوء المدرسة الوجودية، جواد علي كسار، مجلة المنهاج، العدد 32، 1424هـ 2004: ص213-214.

4- ينظر: التفسير الهرمنيوطيقي والتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر، د بشير المالكي، العدد (39)،1441هـ2019م: ص153.

5- التصوير الفني للقرآن، سيد قطب:ص34.

6- القراءات الجديدة للقرآن الحكيم، محمد كنفودي: ص15.

7- ينظر: جماليات الخطاب في النص القرآني، الدكتور لطفي فكري محمد الجودي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1435هـ 2014م: ص44.

وتدهش لتركيبه وتنتشي بقوة تأثيره"[1].وهذا يعني أنّ للقرآن الكريم قدرة تعبيرية هائلة ذات تأثير واضح في نفس القارئ العارف بخصائص لغة تنزيله العربيّة.

ومن خصائص النّصّ القرآني على الصعيدِ الإنساني أنّه "نشأ معه إنسان جديد وعلى الصعيد الأدبي الخالص قارئ جديد ونقد جديد وذوق جديد، وقد يعدّ هذا الصعيد الأدبي الخالص طريقةً في التعبير تلغي الفروقات التقليدية، إنَّه خاصية تفتح للكتابة أفقًا أخر وتوفر لها إمكانيات أُخرى، فهو نموذج جديد من الكتابة تتداخل فيه مختلف أنواع المعرفة، فلسفةً وأخلاقًا وسياسةً وتشريعًا، ومختلف أنواع الكتابة الأدبية، سردًا وحوارًا وقصصًا وتاريخًا وحكمةً وأدبًا، فهو دعوة إلى كتابة جديدة برؤيا جديدة"[2] ومن مميزات هذا النصّ أنّه بوابة لفهم العالم الإسلامي، وإذا أرادَ أحدٌ أن يفهم المسلمين وتاريخهم؛ فعليه استيعاب هذا النّصّ[3]، فضلًا عن ذلك أنّ اللغة والدين في هذا النصّ عبارة عن بنية روحية واحدة، لذلك فيه الغامض الذي لا يمكن أن يعرفه البشر، والواضح الذي يعرفُ من ظاهر اللفظ[4].
إن الدراسات الحديثة أظهرت تصورًا جديدًا للعلاقة بين النصّ وخارجه، فقد تكون علاقة مقيدة في كل مستويات النصّ، وقد تحدد المعاني بدءًا من المخيال الثقافي المحيط بالفرد[5]، وفضل هذه الدراسات "يتمثل في كونها فتحت أفقًا جديدة للقراءة عبر طرح إشكاليّات عدّة تُغيّر التعامل مع المقروء من ذلك مثلًا تعدد الزوايا التي ننظر عن طريقها إلى المعنى"[6].
ومن خلال ذلك نلتمس أنّ هنالك فروقًا بين دراسة النّصّ القرآني، ودراسة النصّ الأدبي، فدارس النّصّ القرآني يجب عليه اعتماد الأصول العامة التي تعينه على فهم النصّ المقدّس، كوجوب اعتماده على كتب التفسير وكتب مفردات القرآن ، وملاحظة علوم القرآن المتعلقة في النصّ المراد تحليله من أجل أن يفهمه فهمًا دقيقًا، وحتى لا يكتنفه اللبس

1- جماليات الخطاب في النص القرآني، الدكتور لطفي فكري محمد الجودي: ص44.
2- النص القرآني وآفاق الكتابة ، أدونيس:ص35-36.
3- ينظر: المصدر نفسه:ص36.
4- ينظر : المصدر نفسه: ص34.
5- ينظر: محمد عبده قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، محمد الحداد، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، بيروت، 2020م: ص33.
6- محمد عبده قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، محمد الحداد:ص32.

والغموض، وذلك بالرجوع إلى أسباب النزول، وعلم المكّي والمدني، فإنّ أسلوب السور المكية يختلف عن أسلوب السور المدنية، وكذلك من العلوم التي يجب أن يُلتَفَت لها معرفة المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ من نصوص القرآن، فإنّ هذه العلوم تساعد على فهم النصّ وتفكك شفراته، ولاسيما تلك النصوص المتشابهة التي توضحها علوم القرآن لبيان مراد النصّ، أو تلك النصوص التي يخرج الكلام فيها مخرج المدح وهي في معرض الذم أو بالخلاف من ذلك. أمّا في دراسة النص الأدبي –بوصف ذلك مجالًا استثمرت فيه نظرية التّلقّي أطروحاتها المعرفيّة- فيجب الإشارة إلى طبيعة النصّ، وتوضيح منهجية الناقد في التحليل، "فهما اللذان يحددان أنماط التحليل والكشف عن التقنيات الفنية"[1]. والأدب بمعناه الخاص هو إعادة صياغة للحياة أو تأثيراتها على النفس بأسلوب راق[2]، وهذا التعريف يوضّح بأنّ النصّ الأدبي تُحيط بهِ أطراف: المنتج أو المتّلقّي(الأديب) والثاني: النصّ أو الموضوع، والثالث: المستمع أو المتلقي، والرابع: عناصر مترابطة مشتركة تؤدي الموضوع وتعكس ذات المؤلف وتؤثر في نفس المتّلقّي. فالتحليل الأدبي يُعنى بتفحّص الآثار الأدبية لمعرفة المعطيات الفنية والفكرية التي تشتمل عليها والقيم الإنسانية التي تضمنتها والروابط التي تربطه بالحياة وأثر ذلك كله في أفكار الناس وأخلاقهم وأذواقهم ووجدانهم وميدان عيشهم[3]. ومن العناصر التي يرتكز عليها الأثر الأدبي في تحليله: العنصر الفكري الذي يشمل على الأفكار والمعاني والحجج والبراهين، والعنصر الوجداني الذي يبحث في الانفعالات النفسية وألوان الشعور والإحساس، والعنصر الفني الذي ينتظم الألفاظ وصياغة تراكيبها، ثمّ من العناصر الأخرى البحث بأفكار الأديب ثمَّ الصلة بين الأديب والبيئة والنّصّ والزمان[4].

1- تحليل النص الأدبي ثلاثة مداخل نقدية، إبراهيم أحمد ملحم، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن، 2016م: ص35.

2-ينظر: النقد الادبي، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، القاهرة، 2012م: ص14.

3- تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، عبد الجواد محمد المحص، دار الكتب، (د.ط) الاسكندرية، 2004م: ص135.

4- ينظر : تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، عبد الجواد محمد المحص: ص136-137.

ثالثًا: التّلقّي:

وردَ في لسان العرب معانٍ متعددة لهذه اللفظة، منها: "وتلقّي الركبان وهو أن يستقبل الحضري البدوي قبل وصوله إلى البلد، وتلقّاه أيّ استقبله ، وفلان يتلقّى فلانًا أي يستقبله، والرجل يلقّ الكلام، أي يلقّنه"[1] وقوله تعالى:﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2] أي معناها تلقّنها وأخذها عنه وتعلمها ودعا بها. كما جاء في محيط المحيط: "لقيه يلقاه لقاء ولقاءة ولقيا ولقيانا ولقيانة ولقيًا ولقية، استقبله وصادفه ورآه، لقاء الشيء طرحه إليه"[3].

وبمرورِ الزمن فقد اكتسب لفظ (التّلقّي) اصطلاحا دالًا في بعض الأنظمة الثقافية ومشيرا إلى كيفيّات التعامل مع النصوص، فتداوله بعضهم بمصطلح الاستقبال، أو التواصل، أو نقد استجابة القارئ، أو القراءة، وغيرها من المصطلحات، وهذا التعدد الاصطلاحي يعود إلى تداول هذا المصطلح وترجمته من بيئة إلى أخرى[4]. في حين إذا عدنا إلى المعاجم الأجنبية نراها تتفق على أنّ التّلقّي هو الاستقبال، والترحاب والاحتفال، فهو "نزوع إدراكي يتهيأ لاستقبال الموضوع الجمالي"[5]. ومفهوم نظرية التّلقّي يستند إلى: "مبدأ عملية مشاركة وجودية تقوم على الجدل بين المتلقي والنّصّ"[6]. ولم تعمل بالضد تجاه المناهج النقدية الحديثة كالشكلانيّة والبنيويّة والتفككيّة، بل كانت تسعى إلى التحول من قطب النّصّ إلى القارئ. أو هي بمفهومٍ أدق "بنية منتجة تؤدي إلى إنتاج الدلالات الأدبية وتفضي إلى قراءةٍ

1- لسان العرب، ابن منظور: (مادة لقي).
2- سورة البقرة:37.
3- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1407هـ 1987م: ص823.
4- ينظر: جماليات التّلقي- المرجعيات المعرفية والآليات الإجرائية، المسعود قاسم، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن،1444هـ 2019م: ص10.
5- فلسفة القراءة وإشكالية المعنى، حبيب مونسي، دار الغرب للنشر والتوزيع ،دط، الجزائر، 1420هـ 200م:ص342.
6- مفهومات نظرية القراءة والتلقي، خالد علي مصطفى، ربى عبد الرضا عبد الرزاق، مجلة ديالى ، العدد(69) ،2016: ص158.

مفتوحة غير محدّدة قادرة على فكّ شفرات النّصّ ودمجه بطابع حي يستوعب آفاقًا غير نهائية من التأويل ضمن وعي نقدي فاعل"[1].

ويجمع الدارسون على أنّ نظرية التّلقّي ظهرت في ألمانيا أواخر الستينيات من القرن الماضي "في الوقت التي عرفت فيه المقاربات البنيوية نوعًا من الفتور، إذ تبين أنّ اختزال النّصّ الأدبي في مجموعةٍ من الأشكال عديم الجدوى، وأصبحت البنيوية في مأزق فكلّ دراسة تعنى بالبنية، فهي أكثر عمومية وناقصة جدًا"[2]، وبعدَ قصور المناهج السياقية في التعامل الجاد مع النصوص سعى النقّاد الألمان إلى بدائل جديدة تعيد النظر للعنصر الثالث وهو(القارئ)، وقد ارتبط هذا التمرد المنهجي في ألمانيا بعملية تقويم جديدة لمناهج التعليم في اللغة والأدب، وهناك وثيقة صدرت عام 1969م تحت عنوان: (وجهات نظر لدراسة جرمانية مستقبلية) "تتحدث عن حقل الدراسات الألمانية بوصفهِ تخصصًا ضارًا، وتحاول العثور على حل للتعاسة المهيمنة، ولمّا كانت هذه الوثيقة عبارة عن مجموعةِ مقالات فقد ختمت بمذكرة من أجلِ إصلاح دراسة الأبنية والأدب، تقترح إحداث تغيرات جذرية في البرامج الأكاديمية "[3].

ولعلّ (ياوس وإيزر) هما قطبا المدرسة الألمانية، وقد جمعهما أساس نظري واحد، وإن اختلفا في تعاملهما مع النصوص، إذ لم يسعَ الأول منهما إلى ملء الفراغات الناجمة عند قراءة الأعمال الأدبية قدر سعيه إلى إثبات إنّ العمل الأدبي لا يعرف الثبات، لكونه في حالة حركة وتطوّر مطّردين، ويتجدّدان بتجدّدِ موضوعه الجمالي تبعًا لتغيّر شروط تلقّيه تاريخيّاً واجتماعيّاً، في حين انصبَّ اهتمام (إيزر) على طبيعة العلاقة بين المكونات النصيّة

1- نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، بشرى موسى صالح ، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2001م:ص31.
2- القراءة، فانسون جوف، ترجمة محمد آيت منعم، وشكير نصر الدين، دار رؤية للنشر والتوزيع،ط1، القاهرة،2016م: ص8.
3- نظرية التوصيل وقراءة النصّ الأدبي، عبد الناصر حسن محمد، دار المكتب المصري للنشر والتوزيع، د.ط، القاهرة، دت: ص100.

للعمل، وبين التلقّي بصفتهِ فعلًا مولدًا للدلالة الناجمة عن الحدثِ المتبادل بين الإشارات الموجودة في النصوص وأفعال كفاءة القارئ[1].

وتقوم نظرية التّلقّي على رؤية فلسفية تفسر ظواهر الوجود اعتمادًا على ذات الفرد، وذلك من خلال نقلها مركز الاهتمام في عملية قراءة الأعمال الأدبية أو النصوص الأخرى، ومنها الدينية إلى القارئ الذي يقوم بعملية تلقّي النّصّ، وقد عُدّ هذا القارئ جزءًا أساسيًا من النصِّ حيث يقوم بتحديدِ الهوية الدلالية للنصِّ، وبإكمال عملية الإبداع ذاتها، وهو ما يوحي بأنَّ عملية حضور القارئ في النّصّ لا تنبني على أساس إنتاج النّصّ واستهلاكه بقدر ما تنبني على علاقة المشاركة التكاملية بين الطرفين، وهذه المشاركة لا يمكن أنْ تتم من دونِ قارئ مُلم وخبير وقادر على إقامة علاقة تحاوريّة بين التأثير الذي يمارسه النصّ والتّلقّي الذي يمارسه القارئ[2]. وتعتمد نظرية التّلقّي على أهمّية إيصال المادة الأدبية، وتقليبها على وجوهها للاطّلاع على أبعادها الجمالية، لذلك فهي تصبّ في اهتمامها على الأدوات، وآلية الاستجابة التي يحملها المتلقّي عندما يواجه نصًا ما، "فالتلقي غاية جمالية ومعرفية تشترك في تحصيلها الحواس والثقافة والتأمل والخيال والمتلقّي يعيد بناء الأثر المعرفي في النصّ، ولكنه في الوقت ذاته يتذوق أبعاده الجمالية"[3]. فهو بذلك درجة من التوازن الثقافي والجمالي بين المبدع والمستقبِل، والقراءة ليست نهائية فيه، بل متباينة[4] تتبع ظروف المتّلقّي والعوامل المؤثرة فيه، وقد يختلف التلقّي باختلاف هذه العوامل لأنّ تغيّر ظروف القراءة قد يؤدي إلى فهم أشمل أو أضيق، وهكذا فالقراءة تغاير مفهوم الفهم النهائي للنص، وقد تُظهر ما يخفيه النصّ من دلالات في تعميق هذه المغايرة،

1 - ينظر، النص وتفاعل المتلقّي في الخطاب الأدبي عند المعري، حميد سمير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م: ص 21.

2- ينظر: تلقي النص القرآني في دراسات المحدثين سورة الفاتحة مثالًا، علي جعفر:ص3.

3- التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، مراد حسن فطوم، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، د.ط، دمشق، 2013م:ص5.

4- إذ أنّ الكيفيّة التي نقرأ بها النصوص ونفهمها متباينة ومتغيرة باستمرار. ينظر: القراءة ، فانسون جوف:ص11.

فالنصوص ليست على درجة متساوية أمام القارئ، فمنها ما هي واضحة ومنها ما هي أقل وضوحًا[1].

إنّ اهتمام عملية التلقّي بالقارئ بوصفهِ أهم عنصر من عناصر العمل الإبداعي لأنَّه يكمل ذلك العمل، ويتجه إلى وضع النصوص في سياقها التاريخي في كلِّ زمنٍ يختلف قراؤه وتتنوع مداركه وأدواته، ويرفض التفسير الطبقي الذي يعبّر عن نظرة أحادية ضيقة تحيد بالأدب عن جوهره[2]، وهكذا يفهم التلقّي عن طريق معنىً مشترك يمتد إلى الاستقبال والتبادل في الآن نفسه، فالتلقّي هو البحث عن التواصل وملء الفراغات وكسر أفق التوقع سيهتم بنشاطات الإنتاج ومكونات النصّ لأنّهُ فاعلية بناء وإنتاج بمقدار ما هو مفعولية قراءة، ومن خلالهِ يسعى القارئ لإعادة تركيب النصّ، وإغنائه بفهم جديد[3]. والفهم الجديد يكون عن طريق التوجّيهات التي يهيئها النصّ لقرّائه المحتملين "بقصد تنشيط القراءة وإبلاغ النصّ أبعاده أو بعض أبعاده الدلالية والتواصلية، وبقصد مساعدة القارئ على تفعيل النصّ وفكّ شفراته ومضمراته"[4].

وتتم عملية التواصل بين المخاطَب والمستقبِل بواسطة اللغة، ويكون الوسيط النوعي بينهما هو النصّ، ويجب أن يصل الاثنان إلى وعي بأهمّية العامل المشترك بينهما (النصّ) "إذ يهيئ اتفاقهما الضمني مجالًا لنمو النصّ في ذهن المتلقّي، فهناك واقع يؤدّي إلى إنتاج النصّ، وهناك استجابة المتّلقّي، إذ إنّ عملية التواصل مبنية على أساس هذا الفهم المشترك"[5].ولأنّ القرآن الكريم رسالة سماوية موجّهةٌ للناسِ كافة، فلا يتحدّد بمكان معين ولا يختص بأمّة معينه إنّما هو خطاب مهيأ للتواصل، لهذا فإنّ القرآن الكريم كينونة تمثل المصدر العلوي الذي يتوجّه إلى المتلقّي برسالة كاملة، وإنّ نجاح العملية التواصلية يعتمد

1- ينظر: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، مراد حسن فطوم: ص6.
2- المصدر نفسه: ص16.
3- ينظر: التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، مراد حسن فطوم: ص17.
4- فعل القراءة و إشكالية التواصل الأدبي ، محمد خرماش ومصطفى عمراني، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن،2020م: ص33.
5- تواصلية التلقي في النص القرآني، د كلثوم عامر شخير، جامعة ذي قار، كلية العلوم الإسلامية، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد(39) 1441هـ 2019م: ص110-111.

بالأساس على الدرجة التي يؤسس فيها النصّ نفسه بوصفه عامل ارتباط في وعي متلقّيه، ومن هنا فإنّ للمتلقّي الركيزة الأساسية للعملية التواصلية فمن دونه لا يمكن أن يتحقق أي تواصل[1]. ولا شكّ في أنّ التواصل وليد القراءة التي تضفي فهمًا جديدًا للنصوص الأدبية والدينية، فالدهشة التي نجدها في النصِّ أول مرة قد يحسسها القارئ كلما أعاد قراءة النّصّ، خاصة إنّ الأعمال التي تصل إلينا محمَّلة بأثرِ القراءات السابقة[2].

فهذه النظرية استثمرت قراءة النصوص الدينية كالقرآن، فكما لكلِّ نصّ أدبي قارئ يتلقّى العمل الأدبي وقد يروق لهُ ، كذلك يحدث في النصِّ القرآني، ففيه الناطق المرسل هو (الله تعالى) وخطاب(النّصّ القرآني) و(مُتلقّي يختلف حسب إدراكه وفهمه وثقافته)، ومتلقّي النصّ القرآني يجب عليه أن يُدرك أنّه أمام نصّ مختلف عن كلِّ النصوص، وذلك لأنّه يمتلك صفة القداسة قبل كل شيء[3]. وأهمّية التلقّي في النصِّ القرآني "تكمن في تحويل الانفعال الذاتي في النصّ إلى معيار يؤسس رصد السمات اللغوية للنصّ القرآني مع ترك المتلقّي في مواجهةٍ مفتوحة مع النصّ حتّى يدرك من خلالها ضرورة فهم النصّ المعجز فهمًا شاملًا، ثم محاولة الاعتماد على هذا الفهم في تربية العقل المتلقّي انطلاقًا من رؤية نقدية قوامها أنَّ النظم القرآني نظم معجز وخارج عن جميعِ وجوه النظم المعتادة"[4]، لذلك لا يمكن لأحدٍ أن ينكر فاعلية النصّ القرآني في المتلقّي، فالنصّ هو المهيمن على المتلقّي، وذلك من خلالِ الآثار الذي يتركها في نفوس المتلقّين أثناء قراءته.

وهكذا، فإنّ النصّ القرآني لهُ القدرة الكامنة على المتلقّي، لأنَّه نصّ معجز، وفي قوله صيغ معبرّة ومؤثرة، وأنّهُ صادر من مبدع ينبغي على المتلقّي إتباعهُ وطاعتهُ لما فيه من أحكام وعلوم شرعية أوحاها الله –تعالى- للبشرية كافة عن طريق الرسول الكريم، ولِما يحمل من أساليب الوعد والوعيد، وصفة القدسية والإعجاز، لذلك يدعو المتلقّي إلى التأمل والتّفكر به،

1- ينظر: تواصلية التلقي في النص القرآني، د كلثوم عامر شخير:ص111.
2-. ينظر: القراءة، فانسون جوف: ص12.
3- ينظر: التلقي في القرآن الكريم السور المكية أنموذجًا، هدى عبد العزيز علي، اطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية التربية، 2005م: ص154.
4- المصدر نفسه: ص154-155.

"ومنشئ النصّ هنا لا ينفعل ولا يتأثّر بالخطاب على الرغم من أنَّه الملقي، فعملية التأثير أو الانفعال تحدث للمتلقّي فقط"[1]. لذا يمكن القول أنّ المتلقّي يتفاعل مع النصّ القرآني، مستجيبًا من خلال إنتاج المعنى والإسهام في تجدده عبر العصور.

وعليه، يمكن القول إن هذا التواصل الحاصل بين النصّ (سورة الكوثر) والقارئ (ممثلا بمدونات التفسير المختارة) هو تلقّ تتحكم فيه عوامل عدّة، أهمها: محاولة هيمنة ذات القارئ على النصّ لإنتاج المعنى الموافق لهذه الذات، بينما يشتمل النصّ على مقصديته المنفتحة، وهذا ما يبقي القراءات المتتالية تدور في إطار تفاعلي سيحاول البحث أن يعطي صورة عنه من خلال النصّ القرآني المذكور الذي كتبت عنه –على الرغم من قصره- مئات الصفحات قديما وحديثا.

1- تلقّي النصّ القرآني في دراسات المحدثين ، علي جعفر:ص7.

الفصل الأوّل : سورة الكوثر.. مدخل أوّلي تعريفي

- المبحث الأوّل: بين يدي السورة
- المبحث الثاني: في وجوه إعجاز السورة

المبحث الأول: بين يدي السورة

أولًا: التعريف بالسورة :

عند العودة للمصحف المبارك بنسخته الرسمية للمسلمين كافة، سنجد شكلًا ثابتًا لهذا المصحف الذي تتوزع داخل متنه سور القرآن جميعها مرتبة ترتيبا، يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس، وتشتمل المصاحف على عدد آيات كل سورة، وعلى مكان نزول السورة (المكي والمدني) فضلًا عن موقعها بالنسبة إلى السورة الأخرى.

ولوعدنا لسورة الكوثر، ومحتواها أجمع قوله تعالى:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾(سورة الكوثر1-3)، سنجد مجموعة من الأمور الخاصة بهذه السورة الكريمة، ويمكن لنا أن نحدد أهمّ ما يميز هذه السورة بالآتي:

تعدُّ هذه السورة من أقصرِ سور القرآن الكريم فهي تتكون من ثلاث آيات وتقع في الجزء الثلاثين في الحزب الستين، ورقمها التسلسلي بين سور القرآن الكريم الثامنة بعد المئة يسبقها في ترتيب المصحف سورة الماعون (107) وتليها سورة الكافرون (109)، أمّا عن ترتيبها في النزول فقد نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر[1]. وسورة الكوثر على قصر آياتها كثيرة الدروس والعِبر تغطي مساحات عقدية وعلمية وأخلاقية وسلوكية وافية، وتختصر قيمة العطاء الإلهي غير المحدود لرسوله الكريم، كما سيتضح لنا لاحقًا.

ثانيًا: فضل السورة :

لم يثبت في سورة الكوثر كما في الكثير من سور القرآن الأحاديث والروايات الوافرة في تعدد أفضالها، لكن من المُمكن أن تستنتج بعض الفضائل العامَّة المُرتبطة بقيمة (نهر الكوثر) إذ يعتقد بعضهم أن الكوثر هو نهر في الجنة لذلك أتت السّورة على ذكره، وسُمّيت باسمهِ. فقد وردَ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قوله: من كانت قراءته :﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ**

1- ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار احياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ-1999م:314/32.

الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ "في فرائضه ونوافله سقاه الله من الكوثر يومَ القيامة، وكان محدّثه عند رسول الله ﷺ في أصل طوبى"[1].

وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: "من قرأ هذه السورة سقاه الله من نهر الكوثر ومن كل نهر في الجنة وكتب له عشر حسنات بعدد كل من قرب قربانًا من الناس يوم النحر، ومن قرأها ليلة الجمعة مائة مرة رأى النبي محمد ﷺ في منامه رأي العين، لا يتمثل بغيره من الناس إلّا كما يراه"[2].

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): "من قرأها بعدَ صلاة يصليها نصفُ الليل سرّا من ليلة الجمعة ألف مرة مكملة رأى النبي في منامه بإذن الله تعالى"[3]، ويمكن أن يُستخلص فضل سورة الكوثر من وقعها على قلبِ الرسول الكريم واستبشاره بما أنبأت وكما مرّ بنا، وقد أكدَّ هذا الفضلُ حفيد الرسول الأكرم بوعد من يقرأها بحسب الشرط المذكور أن ينعم بمرأى سيد الخلق وحبيب رب العالمين؛ ممّا يُشير إلى مكانتها وعظمها، وهذه الرواية يمكن اعتبارها مباشرةً في فضل السُّورة، أمَّا باقي الأحاديث والآثار فهي مُنصبَّةٌ على نهر الكوثر وصفاته وفضله.

ثالثًا: عنوان السورة ومسمّاها:

إن الولوج إلى عالم النصّ ينطلق من العنوان، فهو العنصر الأصيل في التشكيل الأدبي، إذ يقتاد خيوط أساسية في إقامة النصّ وحل شفراته، إذ تدل قراءته الأولى على احتمالات تسعى إلى تجميع المغزى، ثمّ قد تليها قراءةٌ أخرى. وعلى هذا فإن اسم السورة هو عنوان لها، وهنالك أسماء سور توقيفية من الله تعالى عن طريق الرسول ﷺ إذ جعل لكلِّ سورة اسمًا خاصًا يميزها عن غيرها، وأخرى اجتهادية غير توقيفية، ولسورة الكوثر اسم توقيفي واحد هو (الكوثر) وهو المثبت في المصحف الشريف، واسمان اجتهاديان:

1- البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، دار الأعلمي،ط2، بيروت لبنان،1427هـ 2006م: 8\398.

2- البرهان في تفسير القرآن: 398/8.

3- المصدر نفسه:398/8.

الأوّل جملة هو ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾، والآخر هو مفرد (النحر)، وترد التسمية الاجتهادية الأولى إلى بدء السورة المباركة بالآية : ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ وقد عرفت هذه التسمية عند الصحابة كما ورد في الحديث: **"**لمّا طعن عمر وماج الناس تقدم عبد الرحمن بن عوف فقرأ سورتين :﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ و﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾[1]، وبذلك عنون لها البخاري في صحيحه، وعنون لها الثعالبي في تفسيره، وسميت بذلك لأنّها أوّل آية افتتحت بها السورة المباركة، وبذلك تختلف هذه التسمية عن التسمية التوقيفية (الكوثر) الذي عبّرت عن صيغةِ العطاء بوجود المعطي، وهو الله -تعالى- أما التسمية الاجتهادية الثانية للسورة فهي (النحر). فقد ذكرها البقاعي وتابعه بعض المفسرين لتكون هذه التسمية دالة على معنى الكوثر في النحر من دون لفظه، ومعنى الكوثر في النحر يكون من جهة المخاطَب بفتح الطاء التي تقابل كوثر المخاطِب بكسر الطاء فتصبح هذه التسمية قريبة المعنى من الاسم التوقيفي (الكوثر)، والفرق بينها وبين التسمية التوقيفية هو إن التسمية التوقيفية أشمل، لأنّها تتصل بالخير الكثير المعطى من الله تعالى لنبيه ﷺ في الدنيا والآخرة، في حين يقتصر معنى الكوثر في النحر على الدنيا فقط**"**[2]، وقال آخرون: سميت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضًا بسورةِ الكوثر، وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير، وعنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾،ولم يعدّها مع السور التي لها أكثر من اسم[3].وقد ورد عن بعضهم أنّها تسمى (سورة النحر)[4].

وصفوة ما سلف إنّ عنوانات السورة الثلاث التي ذكرها المفسرون صحيحة، ويمكن إضافة عنوانات أخرى للسورة حسب مقدرة قارئ النصّ وخبرته الجمالية، وما يتناسب مع مقتضيات العصر؛ لأنَّ القرآن الكريم نصّ قادر على تحقيق المتطلبات وتفاعله مع الثقافات المتعددة والأغراض المختلفة. ولهذا فإن عنوان (الكوثر) هو الأكثر انضباطًا وإحكامًا في

1- سورة النصر:1.
2-عجائب سورة الكوثر، محمد عبد السلام: ص26-27.
3- التحرير والتنوير ، ابن عاشور :573/30.
4- تفسير روح المعاني، الألوسي:244/30.

تفسير النص، إذ ترتبط هذه الكلمة ارتباطًا وثيقًا بالسورة المباركة، وكذلك لارتباط هذا العنوان بأهمّية السورة ومحتواها الذي تعارف عليه مفسرو القرآن عبر العصور.

رابعًا: محتوى السورة :

لقد عهدنا بالقرآن الكريم الكثير من القصص والعِبر والحكم والأسباب، وذلك لكون نزول القرآن تزامن مع أحداث ووقائع جرت أثناء نزوله، فكان ذلك في نزول بعض السور والآيات ردًّا على تلك الحوادث، فإما ترد على المشركين أو تعالج أمرًا أو قضية، وهذا كله حتى نعلم إنّ هذا القرآن كتاب خالد لا مثيل له محكم معجز في كلِّ جوانبه، والمشهور في هذه السورة إنّها نزلت في مكة، وقيل في المدينة، وقيل من المحتمل إنّها نزلت مرتين في مكة والمدينة، ولكن الروايات في سبب نزول السورة تؤيد أنها مكّية[1].وقد ورد في الأثر النبوي أنَّ سبب نزول السّورة: "هو إن العاص بن وائل رأى رسول الله يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص بن وائل قيل لهُ: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر"[2]، يقصد بذلك أنّ رسول الله ﷺ أبتر لأنَّ العرب كانت تنعت من ليسَ له ولد بالأبتر، وكان قد توفّى عبد الله ابن رسول الله، وهو من خديجة، فسمته قريش عند موت ابنه (الأبتر)"فنزلت السورة تبشر النبي بالنعم الوافرة وتصف عدوه بالأبتر"[3]، والعرب كانت وما زالت تعير أهمّية بالغة للولد، وتعدّه امتدادًا للأب وللعشيرة معا، وحين توفّى عبد الله بدا للأعداء أنّ الرسالة سوف تنتهي بوفاة الرسول الكريم ﷺ من جانب آخر فأنّ السورة نزلت لترد على المشركين بشكل إعجازي، وتوضح لهم أنّ عدوّ الرسول هو الأبتر، وأنّ الرسالة سوف تستمر وتتواصل، وهذه البشرى بددت من جهة آمال الأعداء، وقد روى ذلك عن الصحابة: "كان العاص بن وائل يمر بمحمد ﷺ ويقول: إني لأشنأك، وأنّك أبتر من الرجال، فانزل الله تعالى: إنّ شانئك

1- ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار الأميرة للطباعة والنشر، ط2، بيروت لبنان، 2009م :295/20.

2- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازي:296/20 .

3- مجمع البيان، الطبرسي :549\10.

هو الأبتر من خير الدنيا والآخرة[1] وقد يكون سبب نزول السورة للحدِّ من الأذى الذي تعرّض له الرسول الأكرم –آنذاك- بعد موت أولاده، القاسم وإبراهيم في ذلك الوقت، ولبيان أنّ الرجل ليسَ أبترًا بموتِ الذكور من أولادهِ، بل العكس من ذلك لأنّ للإناثِ شأنا في امتدادِ ذريته، وهذهِ السورة تعدُّ بيانا واضحا لعلو شأنَ المرأة في تاريخ البشرية دائمًا وأبدًا، ولأهميتها في امتداد الرسالة المحمّدية واستمرارها.

خامسًا: موضع نزول السورة:

وضع العلماء اصطلاحات ثلاثة للتعريف بالمكي والمدني باعتبار أحدهما أو كليهما مكانا للنزول لا يتعداه مكان آخر، وهذه الاصطلاحات الثلاث مبنية باعتبارات مختلفة، ففي الوقت الذي جعله بعضهم باعتبار الزمان، اعتبروه آخرون بحسب المكان، وهكذا قال فريقٌ ثالث: إنّه باعتبار المخاطب وعلى النحو الآتي:

أولًا: أنّ المكّي ما نزل من القرآن قبل هجرة الرسول، حتى ولو نزل بغير مكة، والمدني ما نزل من القرآن بعد الهجرة وإن نزل بمكّة ، وهذا الاصطلاح روعي فيه الزمان[2].

ثانيًا: أنّ المكّي ما نزلَ من القرآن بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل في المدينة.

ثالثًا: أن المكي ما كان خطابًا لأهل مكة ، والمدني ما كان خطابًا لأهل المدينة.[3]

وقد جاء في أسباب النزول ما مفاده: إنّ سورة الكوثر مكية ومدنية على اختلاف الروايات المنقولة، وفي هذا الصدد يذكر بعض المفسرين: "تعارضت الأقوال والآثار في أنّها مكّية أو مدنية تعارضًا شديدًا، فهي مكّية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين،

1- الإعجاز البياني في القرآن، صالح عبد الله المشتري:ص21.
2- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:1\27.
3- ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ص29.

ونقل الخفاجي في كتاب النشر قال: الجمع من تعرفه على أنّها مكّية وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها"[1].

وعن الحسن ومجاهد وعكرمة والضحّاك وقتادة أنّها مدنية ورجّح ذلك جلال الدين والنووي في شرح مسلم لما رواه مسلم عن أنس بن مالك قال: "بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثمَّ رفعَ رأسهُ وقال: أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ سورة الكوثر والمعلوم أنّ أنس قد أسلم في صدر الهجرة، فإذا كان لفظ آنفا في كلام النبي مستعملًا في ظاهر معناه وهو الزمن القريب؛ فإن السورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا"[2]. وخلاصة ما يروى في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ أن تكون السورة مكية ومقتضى ظاهر تفسير قوله تعالى: (وَانْحَرْ) من أن النحر في الحج أو يوم الأضحى، ومن ثمَّ تكون السورة مدنية. ولم يختلف العلماء في موضع نزول سورة في القرآن بقدر اختلافهم في سورة الكوثر، فقد تعارضت الأقوال والآثار في ذلك تعارضًا شديدًا، وهذا يدعونا إلى تفصيل هذه المسألة. إذ ذهب الجمهور إلى القول بمكّية السورة[3]، واقتصر عليه أكثر المفسرين وقد روي هذا عن ابن عباس والكلبي ومقاتل، ونقل الخفاجي عن كتاب النشر، قال: "أجمع من نعرفه على أنّها مكّية"[4]. وأدلتهم في ذلك بأنّها نزلت بخصوص العاص بن وائل، وآخرين من المشركين من أهل مكة. والدليل الآخر أنهم وقفوا عند كلمة (الأبتر)وفسروها بمن لا عقب له، بموتِ أولاد النبي محمّد من الذكور، وأولاده توفاهم الله –آنذاك- في مكّة.

1- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الاندلسي، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1431هـ 2010م: 8\519 .وروح المعاني في تفسير القرآن وسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين الالوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت ، 1415هـ 1994م: 8\519.

2 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير القرشي البصري الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، السعودية، 1420هـ 1999م: 8\498.

3- ينظر: تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الاندلسي:8\520

4- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ،شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ،تحقيق ،الشيخ عبد الرزاق المهدي ،دار صادر بيروت:8\402

والأرجح أنّها نزلت في مكّةِ، لأنّها نزلت ردّاً على ذلك الذي آذى الرسول الكريم بتلك الطريقة التي لا تمت للإنسان ذي المروءة بشيء حين وفاة أولاده، حيث شمت به الأعداء، ولأنّ السورة فيها إيجاز شديد، وكانت أغلب السور المكية ذات إيجاز بيّن، بينما أطنب في السور المدنية[1].

سادسا: في مغزى السورة:

إنّ محور سورة الكوثر هو الانتصار للنبي الأكرم ﷺ وبيان فضله -عز وجل- وهي ردٌّ على من وصفه بأنّه أبتر بعد موت أولاده الذكور، ولأنّ العرب كانوا يتباهون بالشاعر الفحل والمنطق الجزل والافتخار بالألسن اللد في مواقف الجدل والخصام كان "هذا اللون من الكيد والسخرية يجد له وقعًا في البيئة العربية وتجد هذه الوخزة الهابطة يهش بها أعداء رسول الله، ولعلّها قد أوجعت قلبه الشريف، ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد له وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه"[2]. ويبعث قوله تعالى (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ليس ردّاً على أعدائه، فحسب بل أنّ ذلك هو الكمال الحق لما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثورة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله وغضبه بتر لهم؛ إذ كانوا بمحل السخط من الله، ووردَ في إعجاز سورة الكوثر للعلامة الزمخشري عن عدو الله العاص بن وائل "ما يهدم مقاله، ويهزم محاله وينفس عن رسوله، وينيله نهاية سؤله، فأوحى إليه سورة على صفة إيجاز واختصار، وذلك ثلاث آيات قصار جمع فيها ما لم يكن ليجتمع لأحد من فرسان الكلام الذين يخطمونه بالخطام[3]ويقودونه بالزمام

1- ينظر: تفسير سورة الكوثر، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الاسلامي للدراسات، ط1، بيروت، 1419هـ 1999م: ص19.

2- عجائب سورة الكوثر ، محمد عبد السلام :ص16.

3- الخطام :الزمام ، وخطمْتُ البعير : زممته . لسان العرب: (مادة خطم).

كسحبان[1] وابن عجلان، وأضرابهما من الخطباء المصاقع والبلغاء البواقع الذين تفسحت في هذا الباب خطاهم وتنفس في ميادينه مداهم"[2].

إن الله –تعالى- حذا ثلاث آيات على عدد المُسليات -كما يعبّر الزمخشري- وهذا إجلال لرسول الله وعلو شأنه وأنّه "أعطى أقصى ما يؤمله عن ربّه، قال تعالى:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ ومن الإيعاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية عدوّه ، ولا يحيد عن التفويض إليه محيداً فلا يذره وائبًا وحيداً ومن الغضب لهُ بما فيه مسلاته من الكرب من إلصاق عار البتر بالكلب ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرَ**﴾ والإشعار بأنّ عدو الله كان بورًا، ولم يكن إلّا صنبورًا"[3].

إنّ الخطاب في الآيات الثلاث موجّهٌ إلى النبي الأكرم ﷺ ليس لزراعة الطمأنينة بقلبه فحسب، ولكن للوقوف بوجه كل شخص يظن سوءًا في رسالته التي تمثل الخير والكمال منذ بزوغها وليومنا هذا، وإنَّ وصف النبي الكريم بالأبتر لم يكن لشخصه فحسب، بل شملت القلة من المؤمنين الذين كانوا معهُ، فعندما وصفه العاص بن وائل بهذا الوصف، نزلت السورة لنصرته وأصحابه أولًا، و لترد على جميع من شكَّك باستمرار الرسالة ثانيًا، وأنَّها سوف تستمر وتتواصل، وهذه البشرى بددت من آمال الأعداء، ورفعت آمال أصحاب النبي الأكرم. لأنّ الرسالة جزء لا يتجزأ من حياة الرسول، وأن المدح والذم لا يغيّر منه شيء كونه صاحب هدف واعد بدعم من الله تعالى، فهذه السورة "تمثل صورة من حياة الدعوة كسورة الضحى وسورة الشرح في أول العهد بمكة، صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ وصورة الله التي يبشر بها عبده، ومن معه من المؤمنين وتثبيت من الله وتطمينه وجميل

1- سحبان بن زفر بن اياس الوائلي، من باهلة ،خطيب يُضرب به المثل في البيان، اشتهر في الجاهلية وعاش مدة في الإسلام وأسلم في زمن النبي ولم يجتمع به. ينظر: مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق جان عبد الله توما ،ط2، بيروت 1425هـ -2005م :1\249.

2- إعجاز سورة الكوثر، جار الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق حامد الخفاف ،دار البلاغة ،ط1، بيروت، 1411هـ -1991م :ص54

3- المصدر نفسه: ص55.

وعدهُ، وكذلك تمثل حقيقة الخير والهدى والإيمان وحقيقة الشر والكفر والظلال، فالأولى كثرة وفيض وامتداد، والأخرى قلة وانحسار وانبتار"[1].

سابعًا: في أسباب النزول:

قد يكون سبب نزول الآية أو الآيات أو السورة في القرآن الكريم بناءً على وقوع حادثة لها أثرها وخطرها على المسلمين، أو قد يكون بناءً على سؤال أو استفسار أو قد يكون السبب عقدي أو استكمالًا لواجبات الإسلام. وهنا نزلت سورة الكوثر بناءً على واقعة حدثت بين الرسول الكريم والمستهزئين من قريش أمثال العاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب، "الذين كانوا إذا رأوا أبناء النبي يموتون يقولون بتر محمد، ولم يبق لهُ ذكر في أولاده بعده، ويعدون ذلك عيبًا يلزمون به وينفرون به الناس من أتباعه، وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وقلتهم وفقرهم يستخفون بهم ويهونون من أمرهم ويعدون ذلك عيبًا في الدين، ويأخذون الضعف والقلة دليلًا على أنّ الدين ليس بحق، ولو كان حقًا لنشأ مع القوّة والغنى، وهذا شأن السفهاء مع الحق في كلّ مكان غلب فيه الجهل، وكان المنافقون إذا رأوا المؤمنين في شدة وبأس يمنون أنفسهم بغلبة اخوانهم القدماء من الجاحدين، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم، وخلوا أيديهم من المال وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام تمر بنفوسهم خواطر السوء فعندما تصعب حلقات الضيق عليهم أرادَ الله أنْ يرفع شأنهم ويكبت الآخرين، فأكدَّ الخبر لنبيه الكريم بأنّه هو الفائز، وأن عدوّه هو الخائب الأبتر، وهو الذي يمحى ذكره ويعفى أثره"[2]. وقيل في سبب النزول: "كان العاص بن وائل إذا ذُكر رسول الله قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك لانقطع ذكره واسترحتم منه، فانزل الله تعالى سورة الكوثر"[3].

1- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: ص17

2- الأعمال الكاملة ، الشيخ محمد عبده ، تحقيق الدكتور محمد عمارة ، دار الشروق ، القاهرة ، 1428هـ - 2008م: 2\542.

3- لباب النقول في اسباب النزول ،عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد السيوطي ، مؤسسة الكتب الثقافية ،ط1 ،بيروت ،1422هـ -2002م :1\266.

وفي رواية أخرى أنّ النبي محمد ﷺ مرَّ وهو آتٍ من جنازة ابنه القاسم على العاص بن وائل وابنه عمرو فقال : حين رأى رسول الله اني لأشنؤه، فقال العاص بن وائل لا جرمَ لقد أصبح أبتر فأنزل الله تعالى سورة الكوثر[1].

من جهة أخرى فإنَّ قريش كانت تترقب انتهاء الرسالة بوفاة النبي ﷺ لأنّهم كانوا يقولون أنّ النبي بلا عقب، والقرآن يقول للنبي لست بلا عقب، بل شانئك بلا عقب. من الواضح أنّ سبب نزول السورة في مختلف الروايات هو ردٌّ على من وصف النبي محمد ﷺ بأنّه أبتر بعد موت أولاده من الذكور.

ثامنا: مناسبة السورة:

- **بيان المناسبة بين الآيات والسور:**

يعرف علم المناسبات: **"**معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها بعض**"**[2].أو هو **"**معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بالمعنى الذي يربط بين سور القرآن العظيم وآياته**"**[3].

وهذا التعريف قد تضمن الإشارة إلى أنواع المناسبات[4] ،وهي كالآتي:

القسم الأول :المناسبات الداخلية وهي أنواع :

الأوّل: مناسبة ترتيب آيات السورة الواحدة وتداخل بعضها بعض وارتباطها وتناسقها وتلاحمها.

الثاني : ملاءمة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له.

الثالث: مناسبة نهاية السورة لمطلعها.

1- تفسير الميزان ، الطباطبائي:20\372.

2- علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بن سالم بن بازمول،ط1، السعودية 1423هـ - 2002م :ص27.

3- المصدر السابق :28.

4-المصدر نفسه: 29.

الرابع: ملاءمة فواصل الآية في السورة.

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي الأنواع الآتية:

الأول : صلة السورة بما قبلها وبما بعدها.

الثاني: مناسبة نهاية السورة لمطلع السورة التالية لها.

الثالث: ملاءمة بداية السورة لبداية السورة التي تليها.

وهناك نوع آخر يدخل في القسمين **"**فلا ينظر فيه إلى السورة بمفردها مع سورة أخرى، ولا إلى آية بمفردها مع آية أخرى، وهو مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور الأخرى ومناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر**"**[1].

وإن من لطائف سورة الكوثر أنّها احتوت على المناسبات الداخلية والخارجية، ففي الداخل رتبت آياتها الترتيب الرشيق، حيث جزءُ منها ما يدفع الدعوة وما يرفعها وما يقطع الشبهة ويقلعها، ثم الجزء الآخر تتمة الغرض من وقوع العدو في مُغواته. وفي ما يلي بيان مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

1- علم المناسبات في السور والآيات:ص30.

أـ مناسبة السورة لما قبلها:

في سورة الماعون توعد الله سبحانه الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤدّون الزكاة لأنّهم مكذبين بالدين غير مؤمنين بالحساب والجزاء توعد الله –تعالى- هؤلاء بالويل والهلاك والعذاب الشديد في نار جهنم، فهي وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقًا بأخلاق المنافقين[1].وفي مقابل هذا جاءت سورة الكوثر تزف إلى الرسول الكريم بشرى العطاء الوفير وذلك الفضل الكبير من ربّه، ومن عطاء الله وفضله ينال كل مؤمن نصيبه على قدر ما عمل، فقد وصف الله تعالى المنافقين بأربع صفات:

البخل في قوله تعالى:﴿**فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾[2] وترك الصلاة في قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[3] ، والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله تعالى :﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**﴾ ومنع الخير والزكاة في قوله تعالى: ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ وذكر الله سبحانه في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع للرسول الكريم فالبخل في مقابلة الخير ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ أيّ الخير الكثير الدائم فأعط أنت الكثير ولا تبخل وأمره بالمواظبة على الصلاة فقال:﴿**فَصَلِّ**﴾ ،أيّ دم على الصلاة وأمره بالإخلاص في الصلاة لله تعالى فقال :﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ ،أي لرضا ربّك، لا لمراءاة الناس، وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء في مقابلة منع الماعون[4].

1- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي:20\425.

2- سورة الماعون:2-3

3- سورة الماعون:4-5

4- أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق، عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام،ط2 ،القاهرة 1398هـ -1978م :ص158.

ب ـ مناسبة السورة لما بعدها:

الكوثر الذي أعطاه الله تعالى للنبي ﷺ كان في مقابلة البتر والحرمان لمن يشنأ النبي الأكرم، الذي وضع الله تعالى الخير كله في يده وهذا مجمل ما تحدثت عنه سورة الكوثر، وفي سورة (الكافرون) التي تأتي بعد هذه السورة ، موقف بين النبي محمد ﷺ وما أعطاه الله تعالى من خير كثير يفيض من النبع الأعظم، وهو الإيمان بالله، وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير ، وحرموا أن ينالوا شيئًا منه ، وفي هذا الموقف يعلن النبي عن هذا الخير الذي مَنّ الله به عليه، وإنّه متمسك به ، مقيمٌ عليه، لا يصرفهُ عنه شيء من هذه الدنيا، فهو لا يعبد غير الله تعالى، ولا يتحول عن عبادته أبدًا، ولا ينظر إلى شيءٍ وراءه من مال وبنين[1].كما وترتبط سورة الكوثر في طابعها الموضوعي بالمناسبة بسورة الضّحى الذي يمكن أن يجمل بموضوع واحد هو الألطاف والمنن والعطايا التي حبا الله – عز وجل- بها نبيه الأكرم.

1- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م : 16\1689.

المبحث الثاني: في وجوه إعجاز السورة:

أولًا- الإعجاز القرآني:

يمثل نزول القرآن في حياة العرب ذروة عناية المجتمع القبلي في الجزيرة العربية ببلاغة الكلمة، وفصاحة المنطق، ودقة الحس البياني، فهو ينشر من أريجه عطر القداسة، ويضم بين دفتيه ما يحير العقول ويأخذ الألباب، جاء ليتحدّى كبرياء الكلمة في عقر دارها وشموخ البيان في عنفوانه[1]. قال تعالى :﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[2]، وقال تعالى أيضًا:﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾[3] ثمّ تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، قال تعالى:﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[4] ثمّ تحدى -عزّ وجل- صناديد الحرب والبيان أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، قال تعالى : ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[5] وعقبَ ذلك بيّن أنَّ العجز سيلازمهم إلى يوم الدين فما عليهم إلّا التضرع لله تعالى لكي يسلموا من يوم القيامة، قال تعالى : ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[6] فالعروف إنّ هذه السورة وبقية السور في القرآن إنّما هي تحدٍّ مفتوح للناس ليحاولوا أن يأتوا بمثله ولكنهم لن يستطيعوا، وذلك يعود إلى طبيعة الأسلوب الأدبي واللغوي الخاص في القرآن، وليس بغريب أنّ هذه السورة تمثل علامة أو دلالة واضحة لمن يعمل على تبيان طريقة الحياة الإسلامية، وطبيعة نشرها. فإن سر هذا الإعجاز لا يعلمه إلّا الله، كما قيل في هذا الباب: "والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعًا، وهو مثل صنع الله في كل شيء، وصنع الناس، أنّ

1- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري:ص7-8.
2- سورة القصص:49.
3-سورة الطور:34.
4- سورة هود:13.
5- سورة البقرة:23.
6- سورة البقرة :24.

هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو اسطوانة أو هيكلًا، ولكن الله تعالى يجعل من تلك الذرات حياة نابضة خانقة تنطوي على ذلك السر الالهي المعجز وهكذا القرآن، حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا ويجعل الله منها قرآنًا وفرقانًا والفرق بين صنع الله وصنع البشر هذه الحروف والكلمات وهو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض، وهو فرق بين صورة الحياة وحقيقة الحياة"[1]. وقد اهتمّ علماء المسلمين المتقدمين والمتأخرين بإعجاز القرآن الكريم، فألفوا رسائل وكتبًا كثيرة في ذلك، وكان الجانب الأبرز وقت نزول القرآن هو إعجازه البياني إلّا أنّ إعجاز القرآن يشمل جوانب عديدة منها الإعجاز الغيبي و التشريعي"[2].

والمعجزة لغةً: من أعجز وعجز، "وهو ما يقابل القدرة، والتاء فيها المبالغة، والعجز نقيض الحزم، والعجز: الضعف، وعجز عن الأمر إذا قصّر منه"[3]. واصطلاحًا هي: "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله"[4].

أ ـ الإعجاز الغيبي:

إنَّ منْ وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء في القرآن الكريم "الإعجاز بما فيه من أنباء الغيب"[5]. ويقصدون بذلك كلّ ما كان غائبًا عن محمد ﷺ ولم يشهد حوادث واقعة ولم يحضر وقتها فيدخل في الغيب؛ لأنّ لا علم له في تفصيلاتها وكذلك ما غاب عنه في وقته ويخبر بها عن طريق الوحي، كإخبار الله تعالى بما يكيده المنافقون والمشركون، وهذا من أكبر وجوه الإعجاز في القرآن لأنّ من المستحيل أن يتنبأ البشر بما يحدث في المستقبل وهذه خصوصية لله تعالى وحده. قال تعالى:﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ**

1- في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط2، 1395هـ1975م: 1\18.
2- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد الله عبد العزيز المصلح والدكتور عبد الجواب الصاوي، دار جياد للنشر والتوزيع،ط1، 1429هـ 2008م: ص23
3- ينظر: لسان العرب، ابن منظور ،مادة عجز.
4- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي :2\252.
5- ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني : ص57.

إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[1]،وأن سورة الكوثر تتضمن هذا الإعجاز في ثلاثة من أنباء الغيب والحديث عن المستقبل "فهي أولًا تتحدث عن إعطاء الخير الكثير للنبي الأكرم ﷺ وهذا الفعل وإن جاء بصيغة الماضي ،قد يعني المستقبل الحتمي الوقوع، وهذا الخير الكثير يشمل كل الانتصارات والنجاحات والتي أحرزتها الدعوة الإسلامية فيما بعد، وهي ما كانت متوقعة عند نزول السورة في مكة، ومن جهة أخرى السورة تخبر النبي محمد ﷺ بأنّه لا يبقى دون عقب، بل إن ذريته ستنتشر في الآفاق، ومن جهة ثالثة تخبر السورة بأن عدّوه هو الأبتر، وهذه النبوءة تحققت أيضًا، فلا أثر لعدوّه اليوم، بنو أُمية وبنو العباس الذين عادوا النبي وأبناءه كانوا ذا نسل لا يحصى عدده، ولم يبق اليوم منهم شيء يذكر"[2].هذه السورة نزلت على النبي محمد ﷺ وهو لا يستطيع أن يصلي عند الكعبة من شدة أذى المشركين، وهي تبشره بالعطاء في الدنيا والآخرة، ومنه النصر الدائم والتمكين الأبدي وتعلن السورة عن خسران كلّ من يقف مستهزئًا أو ساخرًا بالنبي الكريم ﷺ ، فله نصيبه من القطع والذلة والخسران. ثمّ قيل في إعجاز السورة المباركة: سورة الكوثر مع قصرها وافيه بجميع منافع الدنيا والآخرة وذلك لأنّها مشتملة على المعجز من وجوه:[3].

أوّلها : إنّا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع أو على كثرة الأولاد وعدم انقطاع النسل كان هذا إخبارًا عن الغيب وقد وقع مطابقًا له فكان معجزًا.

ثانيها: أنّه قال :**﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾** وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر، وقد وقع فيكون هذا –أيضًا- إخبارًا عن الغيب.

وثالثها: قوله تعالى **﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾** وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزًا.

ورابعهما: إنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها، فثبت أنّ وجه الإعجاز في كمال القرآن إنما تقرّر بها، لأنهم لما عجزوا عن معارضة كل القرآن أولى، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد

1- سورة النمل :65

2- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكرم الشيرازي: 20\299.

3- ينظر: مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي ،دار الفكر،ط1، بيروت ،1401هـ –1981 :32\316.

ومعرفة الصانع وتقرر الدين و الإسلام وتقرر أن القرآن كلام الله، وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيارات الدنيا والآخرة، فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة في الصورة كبيرة في المعنى.

ب ـ الإعجاز التشريعي:

التشريع في اللغة: الشريعةُ مشرعةُ الماء، وهي مورد الشاربة والشريعة –أيضًا- ما شرع الله لعباده من الدين، وقد شرَعَ لهم، أي سنّ، والمعنيان كلاهما يتفقان في الدلالة على الإرواء، فالماء إرواء حسي، والشرع إرواء لغوي[1].

الإعجاز التشريعي في الاصطلاح: هو أحد أوجه الإعجاز القرآني، "وهو إعجاز القرآن لكافّة النّاس بأن يأتوا بتشريعٍ حكيم شامل واقعي متوازن كالذي جاء به القرآن الكريم، وقد جاء القرآن بتشريعاتٍ ربّانية مُحكَمة في بيئة عربية أُمّية لم تكن تعرف التشريع وسنّ الأنظمة الحاكمة بصورة مُتطوّرة، فأعجزها وأعجز من بعدها أن يأتوا بمثله"[2]. وبعبارة أخرى، هو ذلك المنهج البيّن الواضح الذي أرادَ الله لعباده أن يسلكوه، قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[3].

إنّ الإعجاز التشريعي المتضمن في الأحكام الواردة في سورة الكوثر ،"الأمر في الصلاة ووجوب النية فيها والأمر في الذبح، وتقديم الصلاة على الذبح في العيد، وضرورة التصدق ومخالفة المشركين، ونصرة النبي الأمين، وكل هذا يجمع في آيات قصار تتكون من عشر كلمات، ثمّ يكون كل ما تأمر به السورة هو نهاية ما تطمح إليه النفوس من دوام التعلق بالخالق، وإيصال النفع للمخلوق، والسكينة القلبية والنفسية التي تصل إليها البشرية، وإن صبغت حياتها بحب الله وطاعته والأُنس به، ثمّ زيّنت وجودها بالأخوة والتعاون

1- ينظر: لسان العرب ، (مادة شرع) .
2- دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مكتبة الرشد، ط14،السعودية،1426هـ 2005م: ص300.
3- سورة المائدة :48

والنصرة"[1]. وكلّ هذه الأحكام هي مما تدعو له الفطرة الإنسانية السليمة الداعية إلى طاعة الله، ورضاه.

ثانيًا: الإعجاز البلاغي :

القرآن الكريم معجز من وجوه متعددة، "من حيث فصاحته وبلاغته ونظمه وتركيبه وأساليبه وما تضمنه من أخبار ماضية، ومستقبلية وما اشتمل عليه من أحكام جلية وقد تحدّى في بلاغة ألفاظه فصحاء العرب، كما تحداهم بما اشتمل عليه من معانٍ صحيحة، وإنّ التطبيقات فيه ليست أمرًا هيّنًا لأنّها حياته ونماؤه، وتتركز فيه قدرة البليغ ومهاراته، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أن تجمع في صفحات، لكن المهم هو التطبيق والنظر في النص المدروس وتحليله، وإبراز محاسن صياغته ودلالات خصوصياته، والذي يعين على ذلك الحس المرهف والذوق المتمرس الرفيع، وهذا التحليل المبني على التذوق هو أصح المناهج في الدراسة البلاغية"[2]، ويمكن تعريف الإعجاز البلاغي بأنّه "عدم قدرة البشر بمعارضة القرآن الكريم، وقصورهم الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك وهو الاستمرار في تحدّيهم وتقرير عجزهم عن ذلك"[3]. ويمكن توظيف الإعجاز البلاغي في السورة المباركة فيما يأتي:

1ـ حسن الابتداء:

حسن الابتداء، أو براعة المطلع هو أن يُجعل أول الكلام رقيقًا سهلًا، واضح المعاني، مستقلًا عما بعده، مناسبًا للمقام بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء إليه[4]. وفي السورة المباركة براعة استهلال في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ فهذه الآية المباركة حملت معنى يناسب المقام يحمل البشارة للرسول الأكرم ﷺ، ويجذب السامع إلى الإصغاء، لكونه أول ما يقرع السمع.

1- الأمثل في تفسير القرآن، الشيرازي:ص297.
2- الإعجاز البياني في القرآن الكريم، صالح المشتري:17.
3- البيان في إعجاز القرآن ،صلاح عبد الفتّاح الخالدي ،دار عمار، دط، الاردن، دت:ص21.
4- الإيضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين محمد عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424هـ 2003م: ص322.

2- التوكيد:

هو كلّ ما يكسب المعنى قوة ويزيده ثباتًا، وتمكنًا في النفوس، وبعبارة أخرى "أن تحقق باللفظ معنى فهم من معنى آخر"[1]. ويمكن جمع ما اشتملت عليه السورة من أسلوب التوكيد في ثلاث نقاط:

1- افتتح الله تعالى السورة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم (إنّا) لأنّ أصلها (إن) (ونا ضمير المتكلم) للاهتمام بالخبر وللإشعار بأنّه شيء عظيم، وأن الخبر مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء في المستقبل، لا مساق الإخبار بعطاء ماضٍ فحسب[2].

2- صدّر الجملة بحرف التوكيد، ومنه لم يتوجه بقوله إلى الصدق ولم يقصد به الإفصاح عن الحق ولم ينطق إلّا عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيض والحرد، لذلك وسمه بما ينبئ عن المقت الأشد، ويدل على حنق الخصم الألد[3].

3- إذا جعلنا (هو) مبتدأ "فإنّه يفيد التوكيد، إذ يصبح الإسناد مرتين، ويتأتى ذلك من كون الجملة أصبحت جملة كبرى مركبة[4].

3- المقابلة:

"هي إن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"[5]. إنَّ سورة الكوثر كالمقابلة للسورة السابقة(الماعون) وذلك لانّ في السورة السابقة وصف الله تعالى المنافق بأربع صفات:

1-دلائل الإعجاز، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت: ص177.
2- ينظر: التحرير والتنوير ، ابن عاشور:572/30.
3- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري:ص59-60.
4- المصدر نفسه: ص60.
5- الإيضاح في البلاغة، الخطيب القزويني: ص259.

البخل في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[1]، وترك الصلاة في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[2] ،والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، ومنع الخير والزكاة في قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وذكر الله سبحانه في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع للرسول الكريم فالبخل في مقابلة الخير ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، أيّ الخير الكثير الدائم فأعط أنت الكثير ولا تبخل وأمره بالمواظبة على الصلاة فقال: ﴿فَصَلِّ﴾، أي دم على الصلاة وأمره بالإخلاص في الصلاة لله تعالى فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي لرضا ربّك لا لمداهنة الناس وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء في مقابلة منع الماعون[3].
ومجمل مقابلة السورة لما قبلها وما بعدها أنّ العدو وصف الرسول الأكرم ﷺ بالقلة والذلة والقطع ووصف نفسه الكثرة والخير والمهابة، فقلب الله الأمر عليه، فالكثرة اليوم أصبحت للرسول الكريم والذلّ والقطع والبخل لعدوه.

4ـ الوصل والفصل:

في الوصل والفصل يجب على البليغ "أن يكون ذا طابع معرفي بمواقع الجمل، والوقوف على ما ينبغي أن يصنع فيها من العطف والاستئناف، والتّهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة، فلا يوفق للصواب فيه إلّا من أوتي قسطًا وافرًا من البلاغة، وطُبع على إدراك محاسنها، ورزق حظًا من المعرفة في ذوق الكلام وذلك لغموض هذا الباب ودقة مسلكه، فقد سئل عنها بعض البلغاء، فقيل في الوصل: عطفُ بعضِ الجُملُ على بعضٍ، والفصل تركُه"[4]، وإنَّ الوصل الحاصل في سورة الكوثر، في جملة (وانحر)حيث عطفت على جملة (فصلّ)، وقد اتفقا في اللفظ والمعنى. والفصل فيها ترك ذلك العطف الحاصل بين الجملتين، كما في قوله -عز وجل-

1- سورة الماعون:2-3.
2- سورة الماعون:4-5.
3- أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي ، تحقيق ،عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام،ط2 ،القاهرة 1398هـ -1978م :ص158.
4- الإيضاح في البلاغة، الخطيب القزويني: ص118.

﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾هذه الجملة انفكّت عن الجملة السابقة للاستئناف، وكذلك لاختلافهما في الإنشاء والخبر.

5ـ الخبر والإنشاء:

الخبر: هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته، أي بقطع النظر عن المخبر أو خصوص الخبر، وإنما النظر في احتمال صدق الخبر وكذبه إلى الكلام نفسه لا لقائله، وذلك لتدخل الأخبار الواجبة كأخبار الله تعالى، وإخبار رسله. أمّا الإنشاء: هو ما لا يحتمل الصدّق والكذب لذاته أي بغض النظر عما يستلزمه الإنشاء، نحو أرحم و اغفر، فلا ينسب إلى قائلهِ صدق أو كذب، فإنّ الإنشاء لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلّا إذا تلفظت به[1].

وقد اشتملت سورة الكوثر على نوعي الكلام: (الخبر والإنشاء)، حيث أنها بدأت بخبر، قال تعالى:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ وانتهت بخبر، قال تعالى:﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾. وقد ضمت الآية الوسطى إنشاءين: في قوله تعالى : ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾.

6ـ الطباق: وهو "الجمع بين الشيء وضدّه في الكلام"[2].

والطباق في سورة الكوثر طباق (تضاد) بين الكوثر والأبتر، فالكوثر لغةً: تعني الخير الكثير الدائم، والأبتر تعني: المنقطع عن كل خير[3].

7ـ الفاصلة:

تعد الفاصلة القرآنية من أهمِّ الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم، وذلك كونها تحدث انسجاما وتأثيرًا ووقعًا في النفوس، وهذا ما نلمسه في التعابير البشرية، و يُقصَد بها "ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية ،فكما سمّو ما ختم به بيت الشعر قافية، اطلقوا على ما

1- ينظر: الإيضاح في البلاغة: ص108.
2- المصدر نفسه :ص257.
3- ينظر: مجمع البيان، أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، 1415هـ 1995م:9\548.

ختمت به الآية الكريمة فاصلة"[1]. وفي سورة الكوثر تتجلى الفاصلة بحرف الراء في أواخر آياتها الثلاث.

8ـ الأسلوب الحكيم:

هو تلقي المخاطب الكلام بغير ما يتعقبّه، أمّا بإهمال سؤاله والإجابة عن سؤال ثانٍ لم يسأله، أو بحملِ كلامه على معنىً آخر، تنبيهًا له كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يسعى لهذا المعنى[2].

في السورة المباركة، وردَ وصف الأبتر لمحاكاة قول القائل: محمّد أبتر، إبطالًا لقوله ذلك، وكان عرفهم في وصف الأبتر هو الذي لا عقبَ له، تعين أن يكون هذا الإبطال ضربًا من الأسلوب الحكيم، وذلك لصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر، أو المنقطع عن قومه إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظ الخير، أي ليس بمنقص للمرء أنّه لا ولد له لأنّه لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله، ولكن هذا بناءً على أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور للاستعانة بهم عند الكبر وهذا الأمر قد يحصل أو لا يحصل ،والنبي ﷺ قد أغناه الله بالقناعة وأعزه بالتأييد وقد جعل له لسان صدق لم يجعل أحدًا من خلقه مثله وقد جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[3] وما قيل في هذا المعنى يقال في وصف المنقطع عن أهله وقومه[4].

1- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:3\332.
2- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت، 2007م:ص119.
3- سورة الأحزاب : 6.
4- التحرير والتنوير ، ابن عاشور:30\577.

9ـ التغليب:

هو إعطاء الشيء حكم غيره، وقيل: "هو ترجيح أحد المغلوبين على الآخر، وإطلاق لفظة عليهما، وهو إجراء للمختلفين مجرى المتفقين"[1]. ومثال ذلك لفظة الأبوان التي تطلق على الأب والأم. والتغليب في السورة المباركة في قوله تعالى: (فصلِّ)، حيثُ أنّها أمرٌ للمفرد المذكر لكنه شامل للمذكر والمؤنث، وفي الآية أمر بالنحر دون الذبح، وهذا تغليب للفظة النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى (يوم النحر) ليشمل الضحايا في البدن، والهدايا في الحج[2].

10ـ الإيجاز والإطناب والمساواة:

مفهوم الإيجاز: "هو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل الوافي بالغرض مع الإبانة والإفصاح"[3]. والإطناب: هو"زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"[4]. والمساواة: "أن يكون اللفظ بمقدر أصل المراد؛ لا ناقصًا عنه بحذف، ولا زائدًا عليه بنحو تكرير أو تتميم"[5]. قد يعجب القارئ أن يجتمع الإيجاز والإطناب والمساواة في سورة واحدة ولكن هذا العجب سرعان ما يزول إذا علمَ أنّ لكل منهم موضعه الذي لا يطغي به على صاحبه. فالإيجاز في سورة الكوثر في عطف (وانحر)على (فصلِّ) يقتضي تقدير متعلق مماثل لمتعلق (فصلِّ لربك) والتقدير (وانحر له)، وكما تضمنت السورة الإيجاز تضمنت الإطناب وذلك بتكرار كاف الخطاب ثلاث مرات للتشريف، وكذلك تضمنت السورة المساواة في ألفاظها ومعانيها[6].

1- ينظر: البرهان في علوم القرآن:302/3.
2- ينظر: عجائب سورة الكوثر، محمد عبد السلام، دار مكتبة النور، دط ، 2020 ص:53.
3- الإيضاح في البلاغة: ص139.
4- المصدر نفسه: ص181.
5- المصدر نفسه:ص188.
6- عجائب سورة الكوثر: ص53.

11ـ الاستخدام:

الاستخدام هو "أن يُراد بلفظٍ لهُ معنيان أحدهما، ثمَّ بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه"[1]. وفي السورة محسن استخدام تقديري لأنّ سوقَ الإبطال بطريق القصر في قوله (هو الأبتر) نفي الله تعالى وصف الأبتر عن النبي ﷺ ولكن بمعنى غير المعنى الذي عناه شانئه، فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناءً على أن ليس الاستخدام منحصرًا في استعمال الضمير في غير معنى معاده.

12ـ التلميح:

"هو الإشارة إلى قصة أو معلومة أو شعر مشهور أو مثل سائر من غير ذكره"[2]. وسورة الكوثر تشير إلى واقعة طعن من قبل العاص بن وائل وغيره من المشركين بالرسول الكريم بأنّه أبتر عندما توفي أولاده الذكور.

13ـ المذهب الكلامي:

"هو أن يورد المتكلم على حُجَّةً لما يدّعيه على طريق أهل الكلام"[3]. وفي قوله تعالى :﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ تستنتج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، لأنَّ هاتين الآيتين تضمنتا نتيجة من مقدمتين صادقتين وبيان ذلك إنّا نقول: إنّ عطية الكوثر شاملة لجميع المعطيات، ولا شكّ، فأنّ هذه نعمة تستحق الشكر، وقد أمر الرسول الكريم بأن يقابل هذه النعمة بجميع العبادات البدنية بين القيام والقعود والركوع والسجود والخشوع والطهارة الكاملة والدعاء والابتهال ثمَّ أمر مع الصلاة بالنحر، وعطية الكوثر أُعطي بها الفخر والفضل على جميع الأنبياء[4].

1- الإيضاح في البلاغة، الخطيب القزويني: ص268.
2- المصدر نفسه : ص320.
3 - المصدر نفسه: ص276.
4- ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي:20\429.

14ـ الالتفات:

"هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من التكلُّم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها"[1]. ويعدّ القرآن الكريم من أكثر الخطابات اللغوية استخدامًا لهذا الأسلوب.

و في سورة الكوثر صرف الكلام من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب في قوله تعالى :﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ ولم يقل (صلِّ لنا وانحر)، وذلك لما في لفظ الربّ علامة إلى استحقاقه، وإظهار لكبرياء شأنه وعزّة سلطانه.

15ـ النزاهة:

هي صفاء ألفاظ الهجاء من الفحش، فلا قبحَ فيه[2] كما في قوله تعالى :﴿**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون**﴾[3] وهذا اللون حصل في سورة الكوثر في الآية الأخيرة: (إنّ شانئك هو الأبتر).

16ـ الفرائد:

"هذا اللون مختص بالفصاحة من دون غيرها، لأن الإتيان بلفظة التنزيل منزلة فريدة من العقد، وهي الجوهر التي لا نظير لها ،ولو اسقطت من الكلام عزت على الفصحاء"[4]. ومنه سورة الكوثر التي شملت مفردتي (الكوثر والأبتر).

17ـ المبالغة:

"أن يدَّعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدّا مستحيلًا أو مستبعدًا ؛ لئلا يُظنَّ أنه غير متناهٍ في الشدّة أو الضعف"[5].

1- معترك الأقران في إعجاز القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، تحقيق، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط، بيروت، 1408هـ -1988م:1\286.

2- ينظر: المصدر نفسه :318/1.

3- سورة النور:50.

4- معترك الأقران، السيوطي :309/1.

5- الإيضاح في البلاغة، الخطيب القزويني: ص275.

والكوثر: فوعل من الكثرة وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة، وجاء وصف الكوثر في تفسير أغلب المفسرين من السلف والخلف أنّه الخير الكثير[1].

18ـ حسن الانتهاء:

هو آخر ما يعيهِ السمع، ويرتسمُ في النّفس، ونعني بذلك الخروج والانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود برابطة تجعل المعاني متماسكة بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من غرضٍ لآخر[2].

و في الآية الأخيرة تحقق هذا اللون وهو ما يعرفه البلاغيون بأن يجعل المتكلم آخر كلامه حسن السبك، صحيح المعنى مشعرًا بالتمام حتى تحققت براعة المقطع بحسن الختام ويلاحظ ذلك في لفظة(الأبتر) فهي من أحسن المقاطع الدالة على الختام لما في البتر من القطع والانتهاء[3].

ثالثًا - الإعجاز النفسي:

يقول الباقلاني في الإعجاز النفسي: "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهبَ عنهُ الناس فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذ من آحادهم ،ذلك صَنيعه في القلوبِ وتأثيرهُ في النفوسِ ،فإنك لا تسمعْ كلامًا غير القرآنِ منظومًا ولا منثورًا ، إذا قرأ السمعُ خلصَ لهُ القلب منْ اللذةِ والحلاوةِ فانهُ تستبشر به النفوس وتنشرح اليه الصدور"[4]. ويمكن تعريفه : "هو عملية توجيه الفرد وإرشادهِ لفهم إمكاناتهِ وقدراتهِ واستعداداته واستخدامها في حل مشكلاته وتحديد أهدافه ووضع خطط حياته المستقبلية من خلال فهمه لواقعه وحاضره، والوصول

1- ينظر: الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي:429/20. والتحرير والتنوير، ابن عاشور:30\373.
2- الإيضاح في البلاغة: ص326.
3- ينظر: سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي، الدكتور محمد رفعت زنجير والدكتور عمر حمدان الكبيسي، دار نشر اقرأ، دمشق ،1431هـ 2010م:ص48.
4- إعجاز القرآن ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1417هـ 1997م :276/1.

إلى أقصى درجة من التوافق الشخصي والاجتماعي"[1].والقرآن كلهُ، ومنهُ سورة الكوثر جاء لتحقيقِ ذات الإنسان، فالإنسان لا يكون موجودًا بكامل إنسانيته إلا إذا اتبع منهج الحق، ففي السورة تكرر ضمير المخاطب في كل آية (أعطيناك، لربّك، شانئك) وهذا تأكيد للكينونة المحمّدية وتثبيت لشخصيته ﷺوأنّه على الصراط المستقيم[2]. ويتضح ذلك في الدراسة التطبيقية النفسية في سورة الكوثر:

1ـ تحقيق التوافق النفسي للفرد في السورة:

التوافق هو عملية مستمرة تتناول السلوك والبيئة، والأصل في التوافق هو تعديل سلوك الفرد بحيث يتلاءم مع الظروف أو يلجأ الفرد إلى إحداث تعديل في البيئة ، أو يعدل بعضًا من سلوكه و جزءًا من البيئة لإعادة حالة التوازن والتوافق بينهما[3].

وفي سورة الكوثر نجد هذا التوافق النفسي السوي، "فالصلاة نمو للروح والنحر نمو للبدن، وتحققت في هذه السورة دوافع السلوك وحاجات الفرد، وكان النبي محمد ﷺ قد اشبعت دوافع سلوكه في هذه السورة فهو يبتغي رضا الله، وقد تحقق في هذه السورة"[4].

2ـ الحاجة:

إنّ من أهم الحاجات إلى الاحتواء هي الحب والمحبة والحاجة إلى الأمن والحاجة إلى تأكيد الذات، "وعطاء الكوثر يؤكد تلبية هذه الحاجات فقد شعر الرسول الكريم ﷺ بمحبة الله له، إذ أعطاه ما لم يعط لأحد من العالمين، وسيبقى أثر عمله، ويستأصل عدوّه، وقد شعر بذاته عبد الله وسيد البشر"[5].

1-التوجيه والارشاد النفسي ، سهير كامل أحمد، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر :1420هـ -2000 :ص7.

2-ينظر: سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي، محمد زنجير وعمر الكبيسي: ص21.

3- ينظر: التوجيه والارشاد النفسي ، سهير كامل:ص9.

4- سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي: ص21.

5- ينظر:المصدر نفسه:ص22.

3- التأثر النفسي الديني:

إنَّ التأثر النفسي الديني يمكن أن يكون طريقة للإرشاد والتربية و التوجيه والتعليم، يعمل على معرفة الشخص لنفسه وربه ودينه ومبادئه الأخلاقية، فالإيمان الكافي بالله تعالى يؤدي إلى الاعتدال في السلوك فيكون إيمانه وقاءً لهُ من المرضِ النفسي، وهذا الإيمان يمحو الذكريات السيئة، فإن ذكر الله هو غذاء روحي مطمئن ومهدئ يجعل الفرد في ثبات بعيدًا عن الوسواس والقهر، وفي سورة الكوثر التي يعدّ محور موضوعها الاستنقاص من النبي الأعظم ﷺ ذكّر الله عز وجل رسوله بالصلاة لأنّها من أكبر الأسباب النفسية ، لذلك أمره الله بها في هذه السورة[1].

4ـ التشجيع:

التشجيع قوة معنوية يبعثُ على الصبر ويحيي الشجاعة والأمل، "وسورة الكوثر خير مشجع للنبي الأكرم ليواصل دعوته، ولا يهتم بأقاويل أعدائه، طالما أن الله أعطاه الكوثر من جهة وقطعَ عدوه من جهة أخرى، فما عليه إلا بالمضي والإعطاء، فهو يصلي ليقيم العلاقة المتواصلة بينه وبين ربّه، وينحر ليقيم العلاقة الطيبة بينه وبين الناس"[2]. إلّا إنّ هذا التشجيع لم يكن موجّهًا للنبي محمّد ﷺ و ليس مختصا به فحسب، بل يشمل جميع المسلمين وهذه الحروف التي تشتمل على الخير الكثير(الكوثر) تخصّ كلّ شخص ينحى منحى الرسول الأكرم، والحروف التي تشتمل على اليأس والقطع تخصُّ كل شخص ذهب باتجاه العاص بن وائل وغيره من المشركين.

1- ينظر: سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي: ص21.
2- المصدر نفسه: ص25.

ومما تقدم يتضح لنا أنّ سورة الكوثر مع أنّها أقل سور القرآن الكريم حجمًا هي سورة مشمولة بالتحدي الذي افترضه القرآن الكريم على أبلغ فصحاء العرب للإتيان بمثل ما موجود في هذه السورة القصيرة التي تميزت بمجموعة من السمات والخصائص التي ميزتها جاعلة منها ميدانًا للاشتغال المعرفي التفسيري المتباين على مر العصور بحسب أنماط التلقي التي جرت مع هذه السورة المباركة، وهو ما نحاول أن نقف عنده في الفصلين القادمين.

الفصل الثــاني:

موجّهات القراءة والتّلقّي في سورة الكوثر عند القدماء (الكشاف للزمخشري(ت538هـ)، ومجمع البيان للطبرسي(ت548هـ)، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ت606هـ).

- **إضاءة في الحركة التفسيريّة للقرآن وأبعاد تلقيه:**

المبحث الأوّل: الموجهات الخارجّية عند القدماء:

- عنوان السورة موجّهًا خارجيًا:

- مكان النزول موجّهًا خارجيًا:

- أسباب النزول موجّهًا خارجيًا:

المبحث الثاني: الموجهات الداخلية عند القدماء:

- المستوى الصوتي موجّهًا داخليًا:

- المستوى الصرفي موجّهًا داخليًا:

- المستوى التركيبي موجّهًا داخليًا:

- المستوى الدلالي موجّهًا داخليًا:

- **إضاءة: في الحركة التفسيرية للقرآن وأبعاد تلقيه:**

القرآن الكريم هو المصباح الذي نزل به الوحي على قلب الرسول محمد ﷺ والذي أضاء به الأمة، فكان دستورًا عادلًا وتشريعًا دائمًا وهديًا واضحًا. نزل بالشرائع والأحكام منجمًا على النبي ﷺ بحسب الوقائع والأحداث في نيف وعشرين عامًا، فكان لا بدَّ أن توجد فيه ثمة مواضع لم تصل إلى فهمها العقول، ولمّا كانت هذه الشرائع والأحكام لا يمكن الغور بها إلّا إذا فهمت جيدًا، كان النبي ﷺ يقرأ ما ينزل من القرآن مع أصحابه يبين لهم المجمل ويوضّح لهم المبهم ويفسّر لهم المشكل[1]. فالقرآن الكريم نزل على النبي الأمين ﷺ كباقي الكتب السماوية الأخرى على قومٍ كانت لديهم فنون من القول يتواردون عليها لا تتجاوز أنماطًا من الوصف وألوانًا من الحِكم فضلًا عن اشتمال كلامهم على الإيجاز والإطناب والكناية والحقيقة والمجاز، "وجريًا على سنّة الله سبحانه في إرسال الرسل نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم"[2]، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[3]. فكان من البديهي أن يفهم النبي محمد ﷺ القرآن الكريم جملة وتفصيلًا لأنَّ الله تعالى تَكفّلَ لهُ بالحفظ والبيان كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾[4] "لكن من غير البديهي أن يفهمه أصحاب الرسول جملةً وتفصيلًا أي بالنسب الظاهرة وأحكامه، ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا وارادة فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بدّ لهم من البحث والنظر والرجوع إلى ما يُشكل عليهم فهمه"[5]، فلم يكن جميع الصحابة على درجة واحدة في العلم والتفسير فقد تباينت مداركهم واختلفت أفهامهم في تدبّر القرآن الكريم. بعد ذلك انتقل التفسير إلى عهد التابعين الذين أدركوا أصحاب الرسول الكريم

1- ينظر: مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف، دار البيان للطباعة والنشر، د.ط، القاهرة،2003م:ص70.

2- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي:28/1.

3- سورة إبراهيم:4.

4- سورة القيامة:16-19.

5- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي:28/1.

وتعلموا منهم تفسير القرآن وبيان أساليبه التفسيرية[1]،عقب انتقال النبي محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى سادَ الإسلام وانتشر الصحابة في الأمصارِ الإسلامية، لذلك ظهرت مدارس تفسيرية جمّة في عهدِ الصحابة أشهرها ثلاث:[2]

1- المدرسة التفسيرية في مكّة المكّرمة: نشأت على يد عبد الله بن عباس.

2- المدرسة التفسيرية في المدينة: نشأت على يد أُبَيّ بن كعب.

3- المدرسة التفسيرية في العراق: نشأت على يد عبد الله بن مسعود.

وقد تلقّى التابعون التفسير عن أصحاب النبي الأكرم، وبعد أن اتّسعت الفتوحات الإسلاميةُ أخذ التفسير طابع التفصيل في مواضع كثيرة لاسيما في تلك الذي تتعلق بقصص الأنبياء والأمم الماضية، وقد أخذت هذه القصص مساحة كبيرة من مجموع القرآن الكريم، ومع دخول الناس والشعوب الذين صاروا يَرون ما عندهم من الصحيح وغير الصحيح فدخلَ التفسير بطائفة من هذهِ الأخبار إلّا أنّه ظلّ محتفظًا بطابعِ التلّقي والرواية[3]. وبعدَ هذه المرحلة بدأ التدوين في نهاية القرن الهجري الأول وبداية الثاني، ولم يكن مستقلًا بذاته بل دوّن مع الحديث الشريف، "وفي هذا الدور اتَّجه بعض المفسرين إلى اختصارِ الأسانيد ونقلوا الآثار العلمية المروية عن السلف دون أن ينسبوها إلى قائلها، فاختلط الصحيحُ بالضعيفِ، وكثرَ عدد المشتغلين بالتفسير وانفتح الباب على مصراعيهِ لذلك دخل في التفسير الغثُّ والسمين ولم يزل مفتوحًا إلى يومنا هذا فبعدَ أن كان يعتمد النقل من النبي محمّد ﷺ والصحابة والتابعين أصبح يعتمدُ الرأي"[4]، وذلك لظهور مختلف الفرق الإسلامية كلٌّ يدافع عن مذهبهِ وينتصر لهُ حيث يفسرون آيات القرآن الكريم حسب ما يملي عليهم مذهبهم ومعتقدهم. هذه هي المراحل التي مرَّ بها التفسير في نشأته، إذ بدأ في عصر الرسول ﷺ فقد كان يفسّر بعض الآيات للصحابة، ثمَّ التفسير في عهد الصحابة الذين أكثروا

1- ينظر:المدخل إلى تاريخ التفسير والمفسرون، حسين علوي مهر، ترجمة ونشر دار المصطفى، دط، قم المقدسة، 1392هـ :106/1.

2- ينظر: علم التفسير، محمد حسين الذهبي، دار المعارف، د.ط، القاهرة، دت:ص31.

3-ينظر: المصدر نفسه: ص24.

4- المصدر نفسه: ص36.

الرواية عن النبي ﷺ وهم أربعة: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب. ثمَّ مرحلة التابعين الذين أدركوا الصحابة، ثمَّ مرحلة التلقي والمشافهة ثمَّ مرحلة التدوين، و بعدَ هذه المراحل أصبح علم التفسير قائمًا بذاته بمدونات خاصة "داخل كتب الحديث ومصنفاته، ولعلّ أشهر من أفرد أبواب التفسير في كتب المرويات الحديثة هم بالترتيب الزمني"[1]:

يزيد بن هارون السلمي(ت117هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت160هـ)، وآدم بن إيّاس(ت220هـ)، وابن ماجه (ت273هـ)، وابن جرير الطبري(310هـ)، و أبو بكر النيسابوري(ت318هـ).

وأشهر هؤلاء هو ابن جرير الطبري صاحب تفسير (جامع البيان في تفسير القرآن)، فهذا التفسير "من أقوم التفاسير وأشهرها كما يُعدّ المرجع الأوّل عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي"[2].وقد أثّر هذا المفسّر بالمفسرين اللاحقين، لأنّه نقطة الانطلاق الأولى في حركة التفسير، وما يهمنا من تفسير الطبري هو حديثه عن سورة الكوثر –مدار البحث- إذ ذهبَ إلى أنَّها مكّية، ونزلت للمفاخرة بالرسول الكريم ولتصف المشركين بالقطعِ والذل، وذكرَ الاختلاف في معنى (الكوثر) وأبرز ما قال فيه أنّه نهرٌ في الجنة[3]. غير أنّ البحث آثر غض الطرف عن هذا التفسير؛ لأنَّه ارتضى لنفسهِ الاعتماد على التفاسير التي تزامنت من الناحية التاريخية، وتجاذبت الأفكار والرؤى المختلفة التي نجد لها مصداقًا في التفاسير اللاحقة، وكما بيّنا ذلك في المقدّمة.

1- مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف:ص115.

2- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي:1\149.

3- ينظر:جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبدالله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، مصر، 1422هـ 2001م:24\679.

المبحث الأول: الموجهات الخارجية عند القدماء:

أولًا- عنوان السورة موجّهًا خارجيًا:

- **في مدلول العنوان:**

اهتَّمت الدراسات المتقدمة بالعنونة، فالعنوان بمثابة ثريّا النّصّ كونه يعدُّ من أهمّ الأغلفة الخارجية المحيطة بالنّصِّ، إذ يسهم في "توضيح دلالات النّصّ، واستكشاف معانيه الظاهرة، والخفية سواء أكانت فهمًا تفكيكًا أو تركيبًا، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ العنوان هو المفتاح الضروري لسبرِ أغوار النّصّ، والتعمّق في شعابهِ الغائرة، والسفر في دهاليزهِ الممتدة، فهو الأداة التي يتحقق بها اتساق النّصّ وانسجامه، وبها تبرز مقروئية النّصّ وتكشف مقاصده المباشرة وغيرِ المباشرة، ومن ثَمَّ أن النّصّ هو العنوان، والعنوان هو النّصّ وبينهما علاقات جدلية وانعكاسية أو علاقات إيحائية أو تعينية أو علاقات جزئية أو كلية"[1]، ويمكن عدّه علامة لسانية لها دلالاتها الصريحة والضمنية والإيحائية، يمكن استجلاؤها بالنظر العميق في بنية النصّ بوصفهِ عملًا مترابطًا محكومًا بعلاقات دلالية ونصّية وسياقية ينظر لها على وفق هذا المنظور المتكامل بافتراض وجود خيط دلالي يربط هذه العتبة النّصّية بما يليها من عتبات قد تتفق معها سطحيًا، وقد تفترق مع لحاظ الرابط العميق بينهما، لذا كان التوقّف عنده يعني استجلاء معان أودعها المتكلم على نحو مكثّف يمكن تثويره عند الربط الدلالي بين العنوان بوصفهِ علامة، والمضمون الدلالي للنصِّ[2]، لذا فإنَّ العنوان هو العتبة الأولى التي تربط المادة بموضوعها الكلي التي عُنونت له، وتعمل على تلخيص المقاصد الكبرى الرئيسية والثانوية. وفيه قال السيوطي: "عنوان الكتاب يجمعُ مقاصده بعبارة موجزة في أوله"[3].

1- سيميوطيقا العنوان ،جميل حمداوي، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، ط2 ،1442هـ -2020م :ص8.

2 - ينظر: سيميائية العنوان في سورة الكوثر، خالد كاظم حميدي ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، العدد 35: 2014م:ص181.

3- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:2\231.

وفي الحديث عن أسماء السور القرآنية التي تنضوي تحت العنوان الكبير(القرآن الكريم)، نجد للزركشي رأيًا في العنونة الداخلية، والكيفية التي جرت بها إذ يقول: "إنّ العرب تراعي في الكثير من المسمّيات أخذ أسمائها من نادرٍ أو مستغربٍ فقد تكون له صفة تخصّه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمّى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء الكتاب العزيز"[1] ، وهذا التنوع في التسميات يوضّح ثراء النص المسمّى، ويبين شموله لكلِّ الأمور التي شأنها إقناع المتلقي ولفت انتباهه، "وتعتبر{كذا} العرب أنَّ تعدد أسامي الشيء دليل على شرفه"[2].

وقد انقسم العلماء في شأن تسمية السور، هل هي توقيفية غير وضعية لها من سمات القداسة والإعجاز ما لبقية القرآن الكريم، أو اجتهادية قد تقبل الزيادة والنقصان لكونها خارجة من ذات غير إلهيّة ؟ وبالطبع لكلِّ قسم أنصاره. وقد رأى بعض جمهور العلماء مِن أهلِ القرآن أنّ أسماء سور القرآن الكريم توقيفية من النبي محمّد ﷺ حيثُ جعلَ النبي لكلِّ سورة اسمًا خاصًا بها مصداقًا لقوله تعالى:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[3]، والرسول أمرَ أصحابه أنْ يضعوها في مكانِها من سورة كذا، ويسميها باسمها، وذلكَ أمر لازم لإثبات الآيات فيها، وتمييزها عن غيرها[4]، وقد تكون للسورةِ ذاتها أسماء أخرى مشتقة مِن حدثٍ فيها أو صفةٍ أو كلمةٍ، فبعض هذه الأسماء ثبت إنّها توقيفية، وبعضها اجتهادية من وضعِ الصحابة والتابعين أو مِن استنباطِ بعض العلماء لموضوع السورة ، ولهذا اختلف العلماء في أسماءِ السور، وانقسموا بين التوقيف و التوفيق كلٌّ يدافع عن رأيه وموقفه[5].

1- البرهان في علوم القرآن:190/1.

2- العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، محمد بازي، دار الأمان، ط1، الجزائر، 2011م: ص30.

3- سورة الحجر:9.

4- أسماء سور القرآن وفضائلها، منيرة محمّد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي، ط1، السعودية، 1426هـ 2005م: ص73.

5- ينظر: المصدر نفسه: ص76.

أولًا: عنوان السورة موجّهًا خارجيًا عند القدماء:

أـ العنوان موجّهًا خارجيًا عند الزمخشري (ت538هـ)[1].

قبل الولوج في بحث عنونة السورة ودورها عند الزمخشري لابدّ من إيضاح منهجه العام في قراءة النص القرآني وتفسيره. فالزمخشري -كما هو معروف عنه- رجل معتزلي، "فسّر القرآن تفسيرًا اعتزاليًّا يتضمن الوجوه المعنوية المحتملة لمعاني النص القرآني، وقد أجرى تفسيره على طريقةٍ حوارية تفصيلية فيها السؤال والجواب، حيث أصبح منهجًا ينهجهُ منْ يريد التفسير ورسمًا يتبعه من أُوتي الأداة والجهد والوقت"[2].

وبناءً على ما تقدّم فإن المرتبة الأولى عند الزمخشري تتمثل في أن تخضع الآية للعقل[3] لمّا يعتقد من معانٍ اعتزاليّة ثمّ يستعين العقل –بعدئذ- في تقوية المعنى الذي ارتآه لتفسير الآيات، وإنّه يتسامح بكلِّ نقل لا يضار رأيًا اعتزاليًّا أو يعارض أصلًا كلاميًا[4]. وكذلك جارى الزمخشري بعض الفقهاء في استنباطِ الأحكام من القرآن ليدلل بها على آرائه، وذلك عند تقليبه النّصّ على وجوهه المعنوية المختلفة[5]. وفي الآية التي لا يمس معناها الاعتزال يسير في تفسيرها على نهج المفسرين النقليين، فيجيء بالأسباب المعنية، فيبدأ بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ومكان النزول، وقد يفسّر القرآن بالقرآن تفسيرًا ظاهريًا أو

1- أبو القاسم: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقّب بجار الله، ولد في رجب سنة 467هـ ، وقد حظي تفسيره باهتمام المتقدمين والمتأخرين، وليس عجيبًا أن يحظى بمثلِ هذا الاهتمام، فهو الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو، واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتّى العلوم، ومن أجل مصنفاته كتابه في تفسير القرآن، والمحاجاة في المسائل النحوية ، والمفرد والمركب في اللغة العربية. التفسير والمفسرون:304/1.

2- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، ط2، مصر، ص77.

3- امكانيّات التفسير واشكاليّاته في البحث عن المعنى، محمد مصطفوي، دار مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، ط1، بيروت،1433هـ 2012م:ص100.

4- ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن: ص280.

5- المصدر نفسه :ص280.

يفسره بأحاديث الرسول والصحابة، ويقف منها موقف الناقد الفاحص، فضلًا عن ذلك فسّر بعض ألفاظ القرآن بسماعيّتها عن العرب[1].

ولمّا كان عنوان السورة أو مسمّاها في كلِّ سورة رمزًا لها، فلذا نرى الاستجابة الأولى في تفسير النص القرآني تأتي من عتبات النص، وأنَّ كل سورة في القرآن لها عنوان خاص وهذا العنوان ليس اعتباطًا، بل هو ما يميزها من غيرها، وهو مُستل منها تبعاً لحادثةٍ ما أو مقصد عقدي أو سرد قصص الأولين، وفي (سورة الكوثر) أوردَ الزمخشري في تفسيره الكشّاف أنَّ معنى الكوثر (نهر في الجنة) أو انّه (الخير الكثير)، وقد يرى أنّ النهر الذي وعدَ الله به النبي محمّد ﷺ هو جزء من ذلك الخير الكثير[2]. إذ قال: الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إيّاه، وعندما سأل ابن عباس أنّ اناسًا يزعمون أنّه نهر في الجنة قال: النهر الذي في الجنة جزء من ذلك الخير الكثير[3]. وفي كتابه (إعجاز سورة الكوثر)[4] قد أضاف الزمخشري معنى آخر للكوثر هو (أولاد الرسول من فاطمة عليها السلام)[5] إذ رأى فيه أنّ الكوثر (أولاده) من أُمّته إلى يومِ القيامةِ، وما أعطاه الله في الدارين من مزايا الإثرة والتقديم، ووضع في يديه من نواصي التفضيل والتكريم والثواب الذي لا يعرف إلّا هو كنهه، ولا يعطي إلّا الملك شبهه، ومن جملة الكوثر في توجّهه أنّه (نهر في الجنة) الذي حاله المسك ورضراضه التُّوم[6]، وعلى حافّتيه من أواني الذهب والفضّة ما لا يعاده النجوم"[7] وقوله: في أنّ الكوثر يعني أولاده مع قوله أنّه نهر في الجنة رأيان يجمعهما

1- ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن: ص281-282.
2- ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري:6\445.
3- ينظر: حاشية الشهاب، شهاب الدين الخفاجي:8\402.
4- كتاب إعجاز سورة الكوثر، لجار الله أبي القاسم المعروف بالزمخشري، كانت الطبعة الأولى منه سنة 1411هـ 1911م بتحقيق حامد الخفّاف، وهو بالأصل رسالة ردَّ فيها على صديق له حول إعجاز القرآن بأسلوبه الشيّق الرفيع، إذ قال في مطلعها: رسالة من أبلغ الرسالات، جيء فيها مقدمة في إعجاز القرآن الكريم في فضل اللسان العربي على كل لسان على وجهٍ عجيب واسلوب على طرف الثمام. إعجاز سورة الكوثر ، الزمخشري : ص8.
5- إعجاز سورة الكوثر: ص56.
6- الرضراض : تعني الحصى الصغار. لسان العرب : مادة رضض. والتوّم، تعني الدرُّ والتومة: بيضة النعام تشبيهًا بتومةِ اللؤلؤة: لسان العرب مادة (توم).
7- إعجاز سورة الكوثر: ص57.

الخير الكثير ففي أولاده امتداد نسلهِ إلى يوم القيامة، وفي نهر الجنة الخير الذي أكرم الله تعالى به النبي محمّد ﷺ وقد أُكّدَ ذلك العطاء في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[1]، وقد يستنتج مما سبق أنّ هذا النهر جزء من العطاء الذي وعدهُ بهِ الله تعالى.

ب ـ العنوان موجّهًا خارجيًا عندَ الشيخ الطبرسي (548هـ)[2]:

قبل الولوج في بحث عنونة السورة ودوره عند الشيخ الطبرسي لابدّ من توضيح منهجه العام في قراءة النص القرآني وتفسيره. إذ يعدّ تفسير مجمع البيان من أهمِّ تفاسير القرآن فهو مرجع لأعمِّ المفسرين المحدثين، وقد وقع عليه القبول من أعمِّ المفسرين، ويرى الدارسون والباحثون أهمّية هذا التفسير من حيث الدقة والوضوح والترتيب، وقد تحدّث الشيخ الطبرسي عن منهجهِ في هذا التفسير، فقال: "قدمت في مطلعِ كلِّ سورة ذكر مكِّيّها ومدنيّها ثمَّ ذكر الاختلاف في عدد آياتها ثمّ ذكر فضل تلاوتها ثمّ أقدم في كلِّ آية الاختلاف في القراءات ثمّ ذكر العلل والاحتجاجات ثمّ ذكر العربية واللغات ثمّ ذكر الاعراب والمشكلات ثمّ ذكر الأسباب والنزولات ثمّ ذكر المعاني والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات ثمّ ذكر ترتيب الآيات ثمّ اضاف قائلًا: قد جمعت في عربيته كل غرة لائحة وفي اعرابه كل حجة واضحة وفي معانيه كل قولٍ متين وفي مشكلاته كل برهان مبين"[3]، وقد أولى في مسألة السور عناية خاصة فقد حرصَ على ذكر تناسب أكثر السور القرآنية مع ما قبلها وما بعدها ومحاولة لبيان ارتباطها وكذلك يولي في مسألة تناسب الآيات عناية خاصة كما ذكر في منهجه، فهو يذكر آية أو عدة آيات تناسب المقام ثمَّ يَشرعُ في تفسيرِها، ولمْ

1- سورة الضحى :5.

2- وُلدَ سنة (468هـ) وتوفي سنة (548هـ) ودفن بطوس خراسان، وهو أحد كبار علماء الإمامية وهو مفسّر، وفقيه، ومحدّث، وأديب، وأخذ عنه الكثير من العلماء، وقد امتاز تفسيره (مجمع البيان) بخاصية التبويب والترتيب وقد اعتمدَ على كتاب تفسير (التبيان) لشيخ الطائفة الطوسي واعتبره قدوة في تفسيره كما اعتمد على أقوال الصحابة والتابعين كعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود والحسن البصري وقتادة ومجاهد والسدي. دروس في التفاسير ومناهج المفسرين، فارس علي عامر، دار الغدير للطبع والنشر، ط1، طهران،1428هـ2007م:ص114.

3- مجمع البيان، الطبرسي: 1\35.

يقتصرْ على ذكرِ رأيه في التفسير بل يورد ما استطاع جمعه مِن آراءِ، وهذه الآراءِ منسوبة للشيعة الإماميّة و الصحابة والتابعين، وقد يشرع أحيانًا في بعض المباحث الكلامية بشكل موجز[1].

أمّا في معنى عنوان السورة (الكوثر) فقد قال :الشيء الذي من شأنه الكثرة الخير الكثير، وقيل: أنّ الكوثر نهر في الجنة جانباه قباب الدرّ والياقوت، وقيل: أنّ المقصود بالكوثر القرآن، وقيل: هو نهر يجري في الجنّة على الدر والياقوت وقيل: هو النبوّة، وقيل: الكوثر كثرة النسل وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة حتى لا يحصى عددهم إلى يوم القيامة، وقيل الكوثر كثرة الأصحاب[2]، فتبني هذه المسميات التي ذكرها ينتج منها سؤال: هو ما معنى الكوثر؟

يتفق اللغويون على أنّ المقصود بالكوثر هو الخير الكثير ولا خلاف بينهم على ذلك[3]، والظاهر موافقة المفسرين إياهم في هذا المعنى، وقد وقع الخلاف في تحديد مصاديق الخير الكثير، وعلى ضوء ذلك ظهرت عدة أقوال في تحديد دلالة الكوثر.

أمّا ترجيحه بأنّه(نهر في الجنة) فهو طمأنينة لروح النبي محمّد ﷺ وتطيّيب لخاطره، ولتمسح على قلبهِ الشريف من الأذى الذي يتعرض له باستمرار –آنذاك- لكونه بشرًا له من المشاعر ما لغيّره من الناس، لذا يحتاج إلى سند من ربّاني. ولأنَّ وجه التوافق بين (الكوثر وأنهار الجنة) بأنَّ خيرهم غير منقطع وامتدادهم إلى ما لا نهاية. قالَ تعالى:﴿**فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ**﴾[4].

والمعنى الآخر الذي تبناه الشيخ الطبرسي أنّ معنى الكوثر هو القرآن غير مستبعد، وقول رسول الله ﷺ في حديث الثقلين يؤكد ذلك "إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن

1- ينظر: التفسير والمفسرين، محمد حسين الذهبي: 78/2.
2- مجمع البيان، الشيخ الطبرسي :548/9.
3- ينظر: لسان العرب: مادة (كثر). وتاج العروس في جواهر القاموس، محب الدين محمد الزبيدي: مادة (كثر).
4سورة المائدة :85.

تضلّوا بعدي أبدًا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي"[1]، فأحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله(القرآن الكريم) فيه الهدى والنور، وهو حَبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وهذا هو الثقل الأكبر، وعترة أهل بيته (فاطمة وعلي وأولادهما) الذين هم امتداد رسالته السماوية. أمّا قوله في معنى(الكوثر) امتداد نسله من فاطمة الزهراء (عليها السلام) فلأنّ نسل الرسول انتشر من هذه المرأة العظيمة، ولم تكن هذه الذرّية امتدادًا ماديًا فحسب بل كانوا امتدادًا إنسانيًا صانوا الإسلام وضحّوا من أجل المحافظة عليه. وقد ورد في الأثر عن النبي الأكرم قوله: آتيت النبي ﷺ فسمعته يقول: "لا يزال أمر أُمتي ظاهرًا حتى يمضي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش"[2]، ويرى الشيعة الإمامية أنَّ صفات الخلفاء الاثني عشر في الحديث لا تنطبق إلّا على الأئمة الاثني عشر، فهم يرون قوام الدين علميًا وعمليًا بهم. وفي تفسير جوامع الجامع قال العلامة الطبرسي في معنى (الكوثر): "كثرة النسل والذرية، وقد ظهر ذلك في نسلهِ من ولد فاطمة –عليها السلام- إذ لا ينحصر عددهم، ويتصل بحمد الله إلى آخر الدهر"[3]، وهذا يطابق ما ورد في سبب نزول السورة، عندما قالت قريش محمدٌ صنبورٌ، فيكون تنفيسًا عن النبي الأكرم ما وجد في نفسه الكبيرة من جهة أفعالهم، وكذلك رأيه في أنّ الكوثر كثرة الأصحاب والأتباع غير مستبعد باستمرار إتباعه، وتجدد ذكره في القول والفعل إلى اليوم، وفي هذا الموضع قال تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾[4]

فصفوة القول أنّ الشيخ الطبرسي تبنى عدة آراء في معنى الكوثر: منها (الخير الكثير) ومنها (امتداد ذرية الرسول من فاطمة عليها السلام) ومنها ما معناه (القرآن)، و زادَ في

1- حديث الثقلين، السيد علي الحسيني الميلاني، مركز الحقائق الاسلامية، ط1، قم، 1430هـ -2008م :ص37.

2- الأمالي، للصدوق، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية، دار مؤسسة البعثة للطباعة والنشر، ط1، قم المقدسة، 1417هـ :ص388.

3- جوامع الجامع ، العلامة الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، دار مؤسسة النشر الإسلامي ، ط1، قم المقدسة، 1421هـ :857/3.

4- سورة الفتح :29.

ذلك أنّه (نهر في الجنة) وأتمَّ في معنى الكوثر (كثرة الأصحاب)، وكان أرجح هذه الآراء التي تبناها تذهب إلى أنّ الكوثر هو (امتداد نسلِ رسول الله)، وهذا يعكس توجّهه الديني فهو كما معروفٌ عنه من أبرزِ مفسري الشيعة الأمامية في القرن السادس الهجري ومؤولي النّصّ القرآني في القرون المتقدمة، ومن هنا يبدو لنا أنّ تلقّي المفسرين للنصِّ القرآني ما هو إلّا موقف من المواقف الذي تبنيه مجموعةٌ من الظروف والمؤثرات الخارجية والايدلوجية المندرجة ضمن سياقات جدلية فكرية وعقائدية تحرّك هذه المواقف وتوجّهها.

ج ـ عنوان السورة موجّهًا خارجيًا عندَ الفخر الرازي (ت606هـ)[1].

يستدعي بحث عنونة السورة ودورها عند الفخر الرازي إيضاح منهجه العام في قراءة النّصّ القرآني وتفسيره الذي أسماه (مفاتيح الغيب).

وهو تفسير بالرأي المحمود، وممثل لهذه المدرسة وعمدة التفاسير العقلية للقرآن، وقد عُني الفخر الرازي في تفسيره بالفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة والطب واللغة والأدب إلى غير ذلك من علوم وفنون، ومما قال عنه أصاحب التفسير والمفسرون: "كان يكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كما أنّه يعرض كثيرًا لآراء الفلاسفة بالرد والتفنيد، وأنْ كان يصوغ أدلته في مباحث الإلهيات على نمط استدلالاتهم العقلية"[2]،وتفسيره يمثل قيمة علمية كبيرة في تاريخ علم التفسير قديمًا وحديثًا فهو ليس كتابًا يعنى بشرح آيات القرآن الكريم وبيان معانيها فحسب، بل هو موسوعة علمية شاملة نجد فيه المامًا في القراءات وأنواعها، وحديثًا عن العقيدة وقضاياها وعناية بالفلسفة ومشكلاتها ومسائل في الأدب وفنونه واستيعابًا لكثير

1- مؤلف هذا التفسير: هو أبو عبدالله، محمد بن عمر بن الحسين التميمي الملقّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة 544هـ ، كان –رحمه الله- فريد عصره ومتكلم زمانه ، جمع كثيرًا من العلوم ونبغ بها، فكان إمامًا في التفسير والكلام ، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، وقد أكسبه نبوغه شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من الأقطار، وما يخص تفسيره فأنه يقع في ثماني مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. التفسير والمفسرون206/1.

2- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، د.ط، القاهرة، د.ت: 1\209-210.

من المأثور عن النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم من الروايات التفسيرية[1]. وقد تنوعت طبيعة الجهود التي بذلها الفخر الرازي في تفسيره، فهو لم يقتصر على جمع الأقوال المأثورة وحشد الآراء التي رددها السابقون في شرح الآية، بل أضاف جهدًا آخر عقليًا تمثّل في حسن الترتيب والتصنيف ودقة الفهم، وبراعة العرض والإيراد، وعمق الاستيعاب لما يورد من آراء وأقوال، وعرض لمسائل أدرجها العلماء ضمن ما اصطلحوا على تسميتهِ بعلوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ والقراءات والمكي والمدني والمناسبة بين الآيات والسور، كما فصّل القول في أحكام الفقه والعقيدة التي عرضت لها آيات الذكر الحكيم[2].وبهذه الطريقة أرضى أصحاب النقل المتمسكين بالمأثور في التفسير، وأشبع نهمة العقليين الذين يرون ضرورة إعمال العقل وشحذ الرأي وفلسفة النصوص ودعمها بسياج من الأدلة العقلية. وللفخر الرازي في مسمى السورة عدة آراء، الرأي الأول وهو المشهور والمستفيض عند السلف أنّه نهر في الجنة، إذ ورد في الحديث عن النبي محمّد ﷺ قوله: "رأيت نهرًا في الجنة حافّتاه قباب اللؤلؤ المجوّف فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسكٍ أذفر فقلت: ما هذا؟ قيلَ الكوثر الذي أعطاك الله"[3]، وقيل: معناه الحوض والأخبار فيه مشهورة، ووجه التوفيق بين هذا الرأي والرأي الأول أن يقال: "لعلَّ النهر ينصب في الحوض أو لعلَّ الأنهار تسيلُ من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع"[4]،والقول الثالث الكوثر أولادهُ قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردًا على من عابَ رسول الله بأنّه أبتر، فيرى الفخر الرازي في معنى أولاده، أنّه يعطيه نسلًا يبقون على مر الزمان، إذ يقول: "انظر كم قتل من أهل البيت ثمّ العالم ممتلئ منهم، ويرى في الجانب الآخر لمْ يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ بهِ، ثمّ يؤكّد كم كانَ فيهم من الأكابر من العلماء والأئمة

1- منهج فخر الدين الرازي في تفسيره، عادل محمد صالح أبو العلا، جامعة الملك عبد العزيز، د.ط، السعودية -جدّة، د.ت: ص146.

2- ينظر: منهج فخر الدين الرازي في تفسيره: ص147.

3- مفاتيح الغيب، فخر الدين أبو عبد الله محمّد بن عمر بن الحسين بن علي التيمي البكري الرازي المعروف بابن خطيب الري الملقب بفخر الدين الرازي، دار احياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ1999م:313/32.

4- المصدر نفسه:314/32.

كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم"[1]. والقول الرابع: يرى أنّ الكوثر هو العلماء من أمّته فهم يحبّون ذكر الرسول ﷺ وينشرون آثار دينه واعلام شرعه، والعلماء هم ورثة الأنبياء -عليهم السلام- فيما جاءوا به، فقد ورثوا منهم العلم لما ورد عن أبي الدرداء - رضي الله عنه – يؤكد ذلك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[2].والقول الخامس: في معنى الكوثر هو النبوّة ولاشكّ أن النبوة من مصاديق الخير الكثير لأنَّها منزلة عظيمة بعدَ الربوبية، فمعرفة النبوة لابدّ أن يتقدمها معرفة الله وعلمه وحكمته، ولهذا قال تعالى:﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾[3]، فلا شكّ أنَّ نبوة النبي محمّد ﷺ تعني الخير الكثير فهو المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم، فمعجزاته الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى كانت سبيلًا في تقدّمه على جميع الأنبياء، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ**﴾[4]، فأورد في معنى الكوثر بأنَّه(النبوّة) تبعًا لرسالته العظيمة في الدنيا. والقول السادس: الكوثر هو (القرآن)[5] وفضائلهُ لا تحصى، ويرى أنّ وجه التوافق بين الاسم (الكوثر) والمسمى(القرآن) هو قوله تعالى:﴿**قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[6]، والقول السابع: في معنى الكوثر هو الإسلام فإنَّ به يحصل خير الدنيا والآخرة وبفواتهِ يفوت خير الدنيا وخير الآخرة وكيف لا؟ والإسلام لا يخلو من المعرفة، قال تعالى:﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[7]، ويرى الفخر الرازي أن في هذا المعنى أخصَّ الكوثر بالإسلام لأنَّ وصل منه إلى غيره، فكان ﷺ

1- مفاتيح الغيب:314/32.

2- بصائر الدرجات في فضائل آل محمد، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فرُّوخ الصَّفار القمّي، تحقيق ميرزا محمد التبريزي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المُرعشى النجفي، د.ط، قم المقدسة،1409هـ: 10/1.

3- سورة النساء :69.

4- سورة الاحزاب :6.

5- مفاتيح الغيب:314/32.

6- سورة الكهف: 107.

7- سورة البقرة:269.

كالأصل فيه، قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].والقول الثامن يرى في معنى الكوثر كثرة الأتباع والأشياع، ولا شكَّ في عددِ أصحابه، قال ﷺ في حديث أخرجه الترمذي "اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ"[2].والقول التاسع: في معنى الكوثر (الفضائل الكثيرة) التي أنعم الله بها على النبي محمد ﷺفمن تمام نُعمْ الله عليه ،قال تعالى: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[3]، وهذا الذي رآه لمْ يَرهُ أحدٌ غيره وهذه الآية وغيرها امن الآيات في صدد هذا الفضل، هي تبيانٌ تبيانًا للقول الذي تبناه الفخر الرازي. والقول العاشر: في معنى الكوثر هو (رفعة الذكر) تبعًا لقوله تعالى:﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[4]، وقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾[5]، وهذا علو شأنه ورفع ذكره لم يكنْ في زمانه وعصره فحسب، بل امتدّ عبر الزمان والمكان فشمل العالم بأسره، وامتدَّ إلى عصرنا هذا، وسيبقى مرفوعًا إلى آخر الدنيا، وسيكون ذكره عاليا حتى يوم القيامة. والقول الحادي عشر: في معنى الكوثر أنّه (العلم) وهذا المعنى يحتمل عدّة وجوه منها أنّ العلم هو الخير الكثير، قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾[6]،وكذلك أمره بطلب العلم: ﴿**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[7] والوجه الآخر في هذا المعنى يحتمل في الكوثر النعم التي أنعمها الله عليه في الآخرة أو النعم التي أنعمها الله عليه في الدنيا، والمعنى الثاني هو الأقرب، لأنّه قال أعطينا ولم يقل: سيعطيك، وإنْ كانَ تأويلها من باب التعظيم، خاصة أنّه قال في مواضع أخرى في القرآن يعطيك، قال تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ**

1- سورة المائدة :67.
2- الفتح الكبير، الألباني، المكتب الاسلامي، ط3، بيروت، 1408هـ1988م: 163/1.
3- سورة النجم :5.
4- سورة الشرح:4.
5- سورة الزخرف:44.
6- سورة النساء:113.
7- سورة طه:114.

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[1]، وعلى هذا المعنى وجبَ حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو(العلم) والنبوّة داخلة في هذا العلم، فوجب حمل المعنى على العلم[2]. القول الثاني عشر: في معنى الكوثر أنّه(الخلق الحسن)، فيرى الخلق الحسن عامٌ ينتفع به العالمُ والجاهل والعاقل والبهيمة، فأمّا الانتفاع بالعلم مختص بالعقلاء، فكان نفع الخلق الحسن أعمَّ وأشمل فوجبَ حمل الكوثر عليه، ولقد كان الرسول ﷺ كذلك للعالم أجمع، يحل عقدهم، ويسهّل مهمّهم، وفي هذا الموضع قال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**[3] وقال ﷺ: "أحبُّ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا"[4] والقول الثالث عشر: في معنى الكوثر(الشفاعة) أو المقام المحمود، ومن مصاديق هذا القول أنّه قال في الدنيا: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾**[5].والقول الرابع عشر: في معنى الكوثر (هذه السورة) أنّه قال: مع قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه، أولها: يحتمل في الكوثر أنّه امتداد النسل وكثرة الأتباع وهذا أخبار عن الغيب. وثانيها: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾** ويرى أنّه إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر، وهذا إخبار عن الغيب. وثالثها: قوله تعالى ﴿**إِنَّ شانِئَكَ هو الأبْتَرُ﴾** وفيها أخبر أنَّ شانئ الرسول الكريم لا عقبَ لهُ، واسمهُ زائل بمرور الوقت، وهذا إخبار عن الغيب. ورابعها: أنَّهم عجزوا عن معارضتِها رغم قصرها، فثبت وجه الإعجاز في كمال القرآن ، فلما عجزوا عن معارضتها فيعني عجزوا عن كل القرآن ولما ظهر وجه الإعجاز فيها فقد تقررت النبوّة، وإذا تقررت النبوّة فقد تقرر التوحيد وتقرر الإسلام، وتقرر أن القرآن كلام الله تعالى[6]. والقول الخامس عشر: في معنى الكوثر (جميع نعم الله على النبي محمّد ﷺ لأنّ لفظ الكوثر

1- سورة الضحى:5.

2- ينظر: مفاتيح الغيب:315/32.

3- سورة البقرة:195.

4- اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين البوصيري، تحقيق، السيد محمود بن إسماعيل وأبي عبد الرحمن عادل بن سعد، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، 1419هـ 1998م :6\9.

5- سورة الانفال:33.

6- ينظر: مفاتيح الغيب،:316/32.

يتناول الكثرة الكثيرة فلا يحمل اللفظ على بعض النعم وترك الأخرى فهو يرى وجوب حمل المعنى على الكل[1].

والظاهر من تبني هذه الآراء المذكورة في معنى (الكوثر)"إنّه كان يكثر من الآراء العقلية العلوم الطبيعية في عهده كما أنّه يعرض كثيرًا لآراء الفلاسفة بالرد والتفنيد وإن كان يصوغ أدلته في مباحث إلهية على نمط استدلالاتهم العقلية"[2]، عارضًا جميع آراء من سبقوه من الدارسين والباحثين، إلى المعاني الأقرب لهُ وقعًا ما حصلَ عليه من الخير الكثير أو أنّه نهرٌ في الجنةِ وأنّ بقية الآراء داخلة في هذه المعاني، وهذا بلا شك يعكس طبيعة أفكاره وميوله العقدية. وقد تواصلت هذه القراءة بعده، إذ ذكر صاحب تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل المتأثر بالفخر الرازي آراء الفخر الرازي في تلقّي (سورة الكوثر) كما هي، وأولى الآراء عنده أنّه (نهر في الجنة)[3] مستندًا في ذلك إلى أحاديث الصحابة إذ قال: سُئل رسول الله: ما الكوثر؟ قال: "ذلك نهر في الجنة أعطانيه الله، آنيته كعدد نجوم السماء، أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك مَن شربَ منه لم يظمأ ابدًا"[4]، وعلى هذه القراءة نهج صاحب تفسير إرشاد العقل السليم متبنيًا عدة أقوال مرجحًا أنّه نهر في الجنة ، وعن النبي الأكرم

1- مفاتيح الغيب: 317/32.

2- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة ، 1\209-210.

3- وذهب إلى ذلك أيضًا القرطبي في تفسيره فقد تبنّى ستة عشر قولًا، وأولى هذه الآراء عنده :إنّه نهر في الجنة أو هو الحوض في دار القرار، وكما قال: أصح هذه الأقوال: أنّه نهر في الجنة أو أنّه حوض الرسول الكريم لأنّه ثابت عن النبي الأكرم نصّ في الكوثر، وسمع أنس قومًا يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تُصلي امرأة منهنَّ إلّا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي الأكرم، وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول الله زيادة على حوضه ـ ﷺ . ينظر: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله أحمد بن محمد الأنصاري القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، مصر- القاهرة، 1384هـ 1964م: 20\218.

4- لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد بن إبراهيم أبو الحسن الشيحي المعروف بالخازن، (ت741) تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1415هـ 1994م: 4\480. قال في مقدمته :لم أجعل لنفسي تصرفًا سوى النقل والانتخاب مجتنبًا حد التطويل والإسهاب ، وحذفت منه الاسناد لأنه أقرب الى تحصيل المراد ، فما أوردت فيه من الاحاديث النبوية والأخبار الاخرى على آية وبيان حكم.

"أنّه قرأ السورة فقال أتدرون ما الكوثر؟ إنّه نهر في الجنة وعدنيه ربّي فيه خير كثير في صفته أنّه أحلى من العسل وأشدّ بياضًا من الثلج"[1]، وذهب إلى ذلك أيضًا ابن كثير فقد أكدَّ أنّ معنى (الكوثر) هو نهر في الجنة ولم يتبن معنًا آخر مستندًا في ذلك إلى أقوال الرواة[2].

ومما تقدم نستطيع القول: إن العنوان يسهم في تكثيف القراءة وتسييرها بوصفهِ موجّهًا خارجّيًا ذا علاقة بمضمون النصّ، أو محتواه الرئيس، ممّا يؤكد قيمة العنوان بوصفه موجها فاعلا يقع خارج النّصّ، لكنه موجّه مشارك في صناعة معنى النّصّ وترجيح دلالة ما من دلالاته الممكنة، كما يمكن القول: إنَّ فضاء تلقّي النّصّ القرآني ممثلًا بسورة (الكوثر) هو فضاء يظلّ محددّا بمؤثرات موجّهة، ومحكومًا بطوابع متميزة تظل تفرض استحواذها على المفسِّر بغض النظر عن عصره الذي يعيشه.

ثانيًا:مكان النزول وزمانه عند القدماء :

- **في مكان النزول وزمانه:**

كانَ نزولَ القرآنِ الكريم على النبي محمّد ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة، فبعضه نزل في مكة والبعض الآخر في المدينة. وللعلماء في مكان النزول ثلاث آراء:

1- إنّ المكي ما نزلَ من القرآن في مكة المكرمة، وضواحيها كالمنزل عليه في الحديبية ومنى وعرفات، ولو كان بعد الهجرة، والمدني ما نزل في المدينة وضواحيها كالمنزل في أحد وبدر[3].

2- إنّ المكي ما نزلَ خطابًا لأهل مكة، والمدني ما نَزلَ خطابًا لأهل المدينة، وهذا الاصطلاح لوحظَ فيه مكان النزول لكنه غير ضابط ولا حاصر ولا يشمل ما نزل بغير

1- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى (ت 982هـ) دار احياء التراث العربي، دط، بيروت، دت:9\205.

2- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، تحقيق سامي محمد عبدالله، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، 1420هـ 1999م:8\501.

3- ينظر: الإتقان في علوم القرآن:23/1.

مكة والمدينة وضواحيهما. وعليه يحمل قول من قال[1]: إنّ ما صدر في القرآن من اللفظ:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فهو مكّي، لأنّ الكفر كان غالبًا على أهل مكة فخوطبوا بهذا الخطاب، وما صدر فيه باللفظ ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فهو مدني، لأنّ الإيمان كان غالبًا على أهل المدينة فخوطبوا بهذا الخطاب، وقدْ يكون هذا من باب التغليب لانّ هناك آيات مدنية صدرت بصيغة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ مثل سورة البقرة فيها:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾[2] وآيات مكّية صدرت بصيغة ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ مثل سورة الحج فيها:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾[3]، فهذا القول كالقول السابق لا حظّ لهُ من النظر لأنّ المسألة أكبر من انْ تُحصر في مصطلحات وردت في القليل من الآيات القرآنية لهذا لا يمكن التعويل عليه في تحديد المكّي والمدني[4].

3- إنّ المكّي ما نزلَ قبل هجرة النبي محمّد إلى المدينة، وإنْ كانَ نزوله بغير مكة، والمدني ما نزلَ بعدَ الهجرة وان كان نزوله في مكة، ويهتم هذا التقسيم بزمن النزول فهو تقسيم ضابط حاصر لذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم، وهذا القول جامع مانع اعتمد عليه العلماء والتمسوا آثاره في المسائل المتصلة بالمكي والمدني مثل الناسخ والمنسوخ والتدرج في الأحكام والكشف عن مراحل الدعوة الإسلامية[5]، وفي قوله تعالى في سورة المائدة:﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[6]الآية مدنية على الرغم أنّها نزلت في حجة الوداع[7].

وخلاصة ما سلف أنّ القرآن الكريم قام على رعاية المخاطبين فتارة يشتدُّ وتارة يلين تبعًا لما يقتضيه حالهم، سواء في مكّة أو في المدينة، فلوحظ أنّ الخطاب الموجّه لأهلِ مكة شديد وذلك لما تسببوا في أذى الرسول وأصحابه، على العكس من غيرهم.

1- ينظر: مفاتيح الغيب:82/2. وتفسير الكشاف:90/1.
2- سورة البقرة:21.
3- سورة الحج:77.
4- ينظر: مناهل العرفان، الزرقاني:1\160.
5- ينظر: المصدر نفسه:1\160.
6- سورة المائدة:3.
7- ينظر:مناهل العرفان:1\160.

أ- مكان النزول وزمانه موجّهًا خارجيًا عند الزمخشري:

ذهبَ الزمخشري في بيان مكان النزول أنّ المراد بالمكّي ما نزلَ خطابًا لأهل مكّة والمدني ما نزلَ خطابًا لأهل المدينة، لأنّ الغالب على أهلِ مكة كان الكفر فخوطبوا ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾، وكانَ الغالب على أهلِ المدينة الإيمان بالله تعالى، فخوطبوا:﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1] ، لذا ذهب الزمخشري في مكّية سورة الكوثر لأنّها خطابٌ مباشرٌ لأهلِ مكّة ممن وصفوا الرسول ﷺ بأنّه أبتر، بدليل قوله: "إنّ من أبغضكَ من قومك لمخالفتك لهم هو الأبتر لا أنتَ، لأنّ كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة هم أولادك وأعقابك"[2]. بالإضافة إلى ذلك أنّ الشائع في السور المكّية قصر آياتها وإيجازها، وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي، والدعوة فيها إلى الإيمان بالله، والتمسّك بالأخلاق والاستقامة على الخير[3]. فالزمخشري اعتمد مكّية السورة لأنّه يوجب اتباع العقل في السياق في المقام الأول كما معروف عن المعتزلة، ويقدّمه على الروايات والأقوال المأثورة، فالعقل الذي يفكّك السياق هو مصدر المعرفة، وهو الذي يتحقق من دلالات النّصّ.

ب - مكان النزول وزمانه موجّهًا خارجيًا عند الشيخ الطبرسي:

اختلف العلماء في تحديد مكان نزول السورة اختلافًا شديدًا، فقد ذهبَ الطبرسي إلى القول بمكّية السورة نقلًا عن ابن عباس والحسن وعكرمة "والذين استدلّوا بأنّها نزلت بالعاص بن وائل وآخرين من المشركين ممن كانوا يعيشون في مكة، وكذلك استدلّوا بأنّهم وقفوا عند كلمة (الأبتر) وفسروها بالذي لا عقبَ لهُ، وبأولاد الرسول الذين توفاهم الله آنذاك في مكة، وكذلك استدلوا في قول ابن عباس "لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: أنت أخْير أهل المدينة وسيدهم ؟ قال نعم ،قالوا ألا ترى إلى هذا المنبتر يزعم أنّه خير منّا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة ، قال أنتم خير منه فنزلت سورة الكوثر"[4].

1- الكشّاف ، الزمخشري:1\90.
2- المصدر نفسه: 6\446.
3- ينظر : مناهل العرفان، الزرقاني:1\167.
4- مجمع البيان، الطبرسي، نقلا عن الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكرم الشيرازي :295.

ج ـ مكان النزول وزمانه موجّهًا خارجيًا عند الفخر الرازي:

جاء في مفاتيح الغيب عن علقمة والحسن: "كل شيء في القرآن الكريم ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فإنّه مكّي، وما كان:﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فإنّه مدني، قال القاضي الباقلاني: هذا الذي ذكروه إن كان الرجوعُ فيه إلى النقل فمسلّم، وإن كانَ السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينةِ على الكثرةِ من دون مكّة فهذا ضعيف، لأنّه يجوز أن يخاطب المؤمنين مرة بصفتهم، ومرة باسم جنسهم، وقد يؤمر من ليس بمؤمن بالعبادة، كما يؤمر المؤمن بالاستمرار على العبادة والازدياد منها"[1]، وعن سورة الكوثر قال الفخر الرازي أنّها مكّية، "فهوكان مولّعًا بكثرة الاستنباط والاستطراد في تفسيره"[2]، لذا فقد توصف السورة بأنّها مكّية أو مدنية تبعًا لما يغلب عليها، والغالب على سورة الكوثر أنّها مكية. وقد اتفق أعمّ المفسرين القدماء على أنّ السورة مكية باستثناء ابن كثير(ت774هـ) وابن الجوزي(ت597هـ) الذين اقرّوا بأنّها مدنية. والأقرب أنّها مكّية بدلالة المعطيات التاريخية لأنّ الرسول الكريم في المدينة صار له عزٌّ وسلطان، فتعززت فرص بقاء دعوة رسول الله، وكذلك بدلالةِ ما تشير لهُ أسباب نزول السورة بأنَّ جماعة من قريشٍ وصفوا الرسول بأنَّه أبتر عند موت أولاده الذكور وكانَ موتُ أولاد الرسول آنذاك في مكة.

ولعلَّ إيلاء المفسرين الثلاثة مكان النزول دورًا في الفهم والقراءة يعطينا تصورًا عن طبيعة العلاقة الناشئة بين النصّ والمفسِّر، وهي علاقة تقوم على جملةٍ من المسلّماتِ البديهية التي تحولت بتطور الزمن إلى تقاليد، ولا سيما في التفاسير الكلاسيكية التي يَنفْذُ أصحابها من خلالِ ما يحيط بالنصِّ إلى ما يمكن أن يحمله النصّ من أبعاد أيديولوجية وعقائدية.

1- مفاتيح الغيب: 82/2.
2- التفسير والمفسرون:210/1.

ثالثًا- أسباب النزول موجهًا خارجيًا عند القدماء:

- **إضاءة في أسباب النزول:**

يتوجّب على الباحث قبل الحديث عن سبب نزول السورة أن يشير إلى معنى سبب النزول لكونَه مركّبًا إضافيًا في معنى كلمتي (السبب، النزول)، فالسبب هو "كلّ شيءٍ يتوصّل بهِ إلى غيرهِ، أو كلّ شيءٍ يتوسّل بهِ إلى شيءٍ غيره وقد تسبب إليه"[1]، وجاء في مفردات القرآن، السبب: كل ما يتوصّل به من علم أو قدرة أو طريق أو الة، وصولًا إلى الشيء المطلوب سببًا. قال تعالى :﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[2] وقال تعالى في موضع آخر:﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**﴾[3].

أمّا مفردة النزول فمأخوذة من الفعل الثلاثي نزلَ، قال ابن منظور: نزلَ، النزول، الحلول[4]. وقالَ ابن فارس (نزل)[5] "النون والزاي واللام" كلمة صحيحة تدل على هبوط الشيء ووقوعه كما جاء في القرآن الكريم:﴿**وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾[6].

فقد عرف الزركشي سبب النزول: "أنّه علم نزول الآية وقصتها"[7] ومعنى ذلك: أنّ حادثةً وقعت في زمن النبي محمّد ﷺ أو سؤال وجّه إليه فنزلت الآية أو الآيات لبيان ما تطلبه تلك الحادثة، أو جواب عن ذلك السؤال. وقدْ جَعَلَ الله تعالى لكلِ شيءٍ سببًا، وجعلَ لكلِّ شيءٍ قدرًا، فلا يقع حدثٌ في الوجود إلّا إثر مقدمات وإرهاصات، فمعرفة النتائج واستبطان الحقائق يأتيان من مضمون الأسباب، وكذا معرفة قصة الآية، والأسباب الداعية

1- لسان العرب ، ابن منظور : مادة سبب.
2- سورة الكهف:84.
3- سورة الكهف:89.
4- لسان العرب: مادة نزلَ.
5 - ينظر: مقاييس اللغة، مادة (نزل).
6- سورة المؤمنون :29.
7- البرهان في علوم القرآن ، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1376هـ 1957م:1\22.

لنزولها[1]. لذلك قد يحتل علم أسباب النزول الصدارة بين علوم القرآن، و قد حرّم العلماء الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهلَ أسباب النزول[2]، فلا يمكن معرفة تفسير الآية من دون الوقوف على قصتها وبيان أسباب نزولها.

ولا شكَّ في أنَّ هذه الأسباب لها دورها في التوجيه القرائي للنص القرآني، فمن المعلوم أنَّ الله تعالى أنزل القرآن الكريم هداية للناس وأنّ هذا الانزال ينقسم من حيث أسباب النزول إلى قسمين:[3]

الأول: قسمٌ نزلَ ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنّما لهداية الخلق للحقِّ وهو القسم الأكثر في القرآن.

الثاني: قسمٌ نزلَ مرتبطًا بسبب من الأسباب، وهوما يسمّيه العلماء سبب نزول الآية. والجهل بهذه الأسباب يؤدّي إلى قراءات أخرى توهم المتّلقّي وتوقع الناس في اللبس والغموض، فيفهمون الآيات على غير وجهها، ولا يصيبون الحكمة الالهية من تنزيلها . "إذ إنّ أسباب النزول تعدّ موجّهًا لعمل المفسّر في تعيين مراد الله من كلامه، فلا يستخلص معنى الآية في المقام الأول من بنيتها اللغوية والتركيبية والسياقية، وإنّما يستخلص من معارف خارج النص القرآني ومن ثقة القدامى بصحّتها التاريخية وبموافقتها للمعاني القرآنية، فقد يتّكئ المفسر على سبب النزول ليقرر معنى معينًا تؤديه أداة من الأدوات اللغوية أو ليثبت به محددّا لعبارة قرآنية أو لتفسير عموم الآية"[4] وهذا يوضّح مدى أهمية التعويل على أسباب النزول في تفسير مختلف آيات القرآن.

1- الحادث الذي نزلت الآية بسببه، يعد (مجرد مناسبة) وليس هو (علة نزول الآية)، فنزول الآية وإن ناسبت حدثًا ما، فإنّها لا تكون مقيدة به، لا تتعداه إلى غيره، بل هي تشمل جنس الحدث في مطلق الأزمنة والأمكنة، وإلا سقطنا في النظرة التاريخية للآيات. القراءات الجديدة للقرآن الحكيم-قراءة محمّد جابر العابدي، مُحمَّد كنفودي، دار افريقيا الشرق، د.ط، المغرب، د.ت :ص233.

2- ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:ص71. وأسباب النزول، أبو الحسن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق ، ط2، عصام بن عبد المحسن، دار الاصلاح، الدمّام ،1412هـ 1992م :ص5. والبرهان في علوم القرآن، الزركشي: ص28.

3- مناهل العرفان: 89/1.

4- أسباب النزول، بسّام الجمل: ص328.

أ- أسباب النزول موجّهًا خارجّيًا عند الزمخشري(ت538هـ):

يلتزم الزمخشري كثيرًا في أسباب النزول، خاصةً أنّ القرآن نزل منجّمًا على امتدادِ ثلاثةِ وعشرين سنة، فهو يجعل أسباب النزول مدخلًا للتفسير، "إذ تحضر بقوة ضمن خيوط شبكة التفسير عند الزمخشري، وأسباب النزول رافد قوي للقراءة التي تستعين بسجلات معرفية، تحضر على شكل معلومات، أو وقائع، أو أحداث تلقّي مزيدًا من الضوء على الأجزاء المرتبطة بها من النّصّ لإزالة الغموض، وإضاءة موضوع التفسير بالمادة المناسبة التي يحفظها علم أسباب النزول، وتقوم هذه المعارف والأخبار بدور السند المرجعي الذي يسمح للمفسر بتأطير مجال المعنى، وربط البنيات النصية بالوقائع التاريخية"[1]، إنّ عناية الزمخشري في خطابهِ التفسيري في الموجّهات الخارجّية، شأن أسباب النزول، "ملمح يميز أهمّية العناصر الخارجية في بناء المعنى"[2]، فقراءاته التفسيرية تجول أقطار النّصّ والفضاءاته المعرفية الخارجّية، وكلّ ذلك محكوم برهان الفهم البليغ. وفي سبب نزول سورة الكوثر، ذكرَ الزمخشري أنَّ السورة نزلت في العاص بن وائل، ويبيّن سبب نزولها قائلًا: "وردَ على رسول الله عن عدوّ الله العاص بن وائل ما يهدم مقاله ويهزم محاله وينفّس عن رسوله وينيله نهاية سؤله، فأوحى إليه ثلاث آيات قصار، جمع فيها ما لم يجتمع لأحد من فرسان الكلام، فقد أنزلَ الله تعالى ثلاث آيات من اجلال محل رسول الله واعلاء كعبه، ومن الإيعاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص، وأن لا يحفل بما ورد عليه من العاص، ولا يحيد عن التفويض إليه محيدا فلا يذره وائبًا وحيدًا، ومن الغضب لهُ بما فيه مسلاته من الكرب، من إلصاق عار البتر بالكلب[3]، والإشعار بأنّه كانَ عدوًا بورًا ولم يكن إلّا صنبورًا"[4].ويفسّر ذلك أنّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم (هو الأبتر) لا أنتَ، ويقول: إنّ كل من يلد إلى يوم الدين من المؤمنين هم أولادك وأعقابك وذكرك باق مرفوع على المنابرِ وعلى لسانِ كلِّ العالم

1- صناعة الخطاب، محمّد بازي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، عمّان، الأردن، 2015هـ 1436م:ص228.

2- المصدر نفسه: ص232.

3- إشارة إلى قوله تعالى :﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ ويقصد بذلك الحاق صفة البتر لشانئ الرسول.

4- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: 55.

وذاكرٍ إلى آخر الدهر يبدأ ويثني بذكرك ولكَ في الآخرة ما لا يدخل الوصف، فمثلك لا يقال لهُ أبتر وإنّما الأبتر شانئك المنسي في الدنيا والآخرة وإن ذُكر ذُكر بالذمِّ واللعن، فهم الذين كانوا يقولون محمّد صنبور إذا مات انتهى ذكره[1].وفي قول الزمخشري: إنّ من أبغضك من قومك هو (الأبتر) شمل كلّ من خالف دعوة الرسول الكريم للحق، وقد اسند ذلك إلى قوله تعالى:﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِين**﴾[2] وكان العاص بن وائل السهمي على رأس هؤلاء المستهزئين، وقد يكون ذكر الزمخشري العاص بن وائل بعينه في سبب نزول السورة تبعًا لقولهِ تعالى:﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾[3]،ويقولون (جَعلَ) بمعنى (بين) وليست بمعنى خلق.

ب ـ أسباب النزول موجّهًا خارجيًا عند الطبرسي :

يذكر الطبرسي أسباب النزول في تفسيره ولا يقتصر على ما اقتصر عليه أقرانه من الشيعة الإمامية، بل يتعرض إلى ما ذكره غيره في سبب نزول الآية. ويرى الشيخ الطبرسي في سبب نزول سورة الكوثر أنّها نزلت ردّاً لقول قريش أنّ النبي محمّد ﷺ أبتر لا ولد لهُ يذكر، فإذا مات استرحتم منه، فأنزل الله تعالى سورة الكوثر[4]، في حين قالَ تعالى:﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[5]، وذلك تقييض من يراعيه ويراعي دينه الحقّ وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام علي -عليه السلام- "العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة"[6]. هذا القول في العلماء اتباع النبي محمّد، فكيف بهِ هو وقد رفعَ الله تعالى ذكره وجعلهُ خاتم الأنبياء والمرسلين؟

1- ينظر: تفسير الكشّاف، الزمخشري:445/6. والمعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته، تأليف وتحقيق قسم القرآن مجمع البحوث الاسلامية، مركز البحوث الكمبيوترية للعلوم الاسلامية، ط2، ايران، 1434هـ 2013م:626/4.

2- سورة الحجر:95.

3- سورة الفرقان:31.

4- ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن :625/4.

5- سورة الشرح: 4.

6- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد:346/18.

ج ـ أسباب النزول موجّهًا خارجيًا عند الفخر الرازي(ت606هـ)

عني الفخر الرازي في تفسيره بذكر أسباب النزول، إذ يذكر للآية الواحدة سببًا أو أكثر[1]، وقلَّما يجد القارئ سورة لم يذكرُ فيها عدة أسباب، ولاسيما ما يتعلق بالصحابة أو الكفّار، وهو شديد الحرص على إيرادِ سبب النزول خاصةً إذا كانَ فهم الآية يتوقف على بيانِ هذا السبب[2]. والشاهد في ذلك أنّه ذكر عدة وجوه في تبيان سبب نزول سورة الكوثر[3]، ومن هذه الوجوه: "إنّ النبي محمّد ﷺ كانَ يخرجُ من المسجدِ والعاص بن وائل السهمي يدخلُ، فالتقيا فتحدثا وصناديد قريش في المسجدِ فلمّا دخل قالوا: من الذي كنت تتحدث معه، فقال: ذلك الأبتر، وروي أيضًا أنّ العاص بن وائل كانَ يقول أنّ محمّد ﷺ أبتر لا ابن لهُ يقوم مقامه بعده، فاذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه، ثمّ أنّ الله تعالى بيّن أنّ عدوّه هو الموصوف بهذه الصفة، فنسل رسول الله كلِّ يوم يزداد وينمو، وهكذا إلى يوم القيامة، بينما نسل عدوّه الكافر قد انقطع وانتهى. والوجه الثاني قد ورد في الحديث: لما قدم كعب بن الأشرف مكة جاء له جماعة من قريش، وقالوا له نحن أهل السقاية والسدانة[4]، وأنتَ سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه، قال بل أنتم أخير منه فأنزل الله سورة الكوثر، ليبين أنّ الذي قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى وأمّا المدح الذي ذكره الله تعالى في النبي محمّد ﷺ باقٍ على وجه الدهر، والوجه الثالث لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريش إلى الإسلام قالوا: بتر محمّد ويعنون بذلك أنّه خالفهم وانقطع عنهم فأخبر الله تعالى هم المُبتَرون، والوجه الرابع: أنّها نزلت في أبي جهل فإنّه لمّا مات ابنه ﷺ قال أبي جهل إنّي أبغضه لأنّه أبتر، والوجه الخامس، نزلت في عمّه أبو لهب فإنّه لما شافهه بقوله (تبًّا لكَ) كان يقول في غيبته أنّه أبتر، والقول السادس: إنّها نزلت في عقبة بن أبي معيط وأنّه هو الذي كان يقول ذلك[5].هذه الوجوه التي تبناها الفخر الرازي في سبب نزول

1- ينظر: التفسير والمفسرون ، محمّد حسين الذهبي:1\209.
2- ينظر: المصدر نفسه:1\210.
3- ينظر: مفاتيح الغيب: 32\313.
4- السدانة أو الحجابة والتي يعنى صاحبها بالكعبة المشرفة، أمّا السقاية تعني توفير المياه للحجّاج.
5- ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن، تأليف قسم القرآن مجمع البحوث الاسلامية:4\629.وفي هذا الباب قال البيضاوي في تفسيره : إنَّ شانئك ومبغضك هو الأبتر الذي لا عقبَ لهُ إذ لا يبقى له نسل ولا حسن

السورة توحي بأنّ مشركي قريش قالوا: إنّ النبي محمّد أبتر، وستنتهي دعوته بفنائهِ لأنّه لا عقبَ له بعدَ موت أولاده من الذكور، هذه هي عصبية الجاهلية فلمّا أوحى الله تعالى إلى النبي محمّد، قال تعالى:﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[1]، جمع النبي محمّد ﷺ عشيرته وأصحابه، ودعاهم علانية إلى الإيمان بالله تعالى، وبيّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه، فكانَ لابدّ للبعض أن يعارض هذه الدعوة بشتّى الطرق، فعارضوه بعدة طرق بالأيدي والألسن ومنها هذه الصفات التي ألبسوها لهُ.

وبالطبعِ، فهذه هي مقاييس البشر، لكن مقاييس الله –تعالى- لا ندركها، والبشر ينخدعون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر الحقائق وسورة الكوثر خير مثال خالد، فأين الذين كانوا يقولون عن النبي محمّد قولهم اللماز، لينالوا من شأنه العظيم، ظانين أنّهم قضوا على النبي محمّد وقطعوا عليه الطريق؟ وهؤلاء المغرضون لا وجود لهم اليوم، ومن بقي ذكره ونسله يتجدد هو صاحب الكوثر، وأنّ الله –تعالى- هو صاحب النعم والأول بإسباغ النعم في الدنيا والآخرة. وهو ما يعني إنّ حضور (أسباب النزول) بوصفها موجّهًا يحرك القراءات التفسيرية هو حضورٌ يعكس أشكالًا عديدة من أثر الموجّهات الخارجية في تلقّي النّصّ القرآني، وتوظيفها في طلب المراد من المعاني القرآنية التي تكنزُها آيُ القرآن الكريم، ومن الضروري أن يستجيب ذلك التوظيف إلى مطالب عديدة تتوافر عليها شخصية المفسِّر لعلَّ أهمها: "ثقافة المفسِّر وانتماؤه المذهبي وطبيعة المشاغل المعرفية والاجتماعية السائدة في عصره"[2]

ومما سبق نستنتج أنّ المفسرين الثلاثة قد تعاملوا مع أسباب النزول على أنّها موجّه يسيّر الدلالة في النص بحسب الوجهة التي يرتضيها كلٌّ منهم، وقد ظلّت أسباب النزول موجّهًا يقع خارج النص عندهم، لكن لا يمكن تجاهله في توجيه القراءة.

ذكر، أمّا أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1418هـ :5\342.

1- سورة الشعراء:214.

2 - أسباب النزول علما من علوم القرآن، بسّام الجمل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، بيروت ،2013م: ص12.

المبحث الثـانـي: الموجهات الداخلية عند القدماء:

يتحتَّم على الباحث قبل الشروع في تحليل النّصّ القرآني الاعتماد على الأصول العامة التي تعينه على فهم النّصّ القرآني الكريم لأنَّ تحليل النّصّ "يتطلب النفاذ إلى عمقه واكتشاف ما يذهب إليه وسبر أغواره واستجلاء كوامنه ومعرفة أسراره ورؤية الجوانب الخفية فيه، والتأويلات التي يذهب إليها وتنوع دلالاتهِ، فلا بدّ من إجراء مجموعة من التقنياتِ اللغوية والإحصائية التي تسهم في استخراج محتوى النّصّ، وهذه الإحصائيات تشمل تحليل النّصّ والتعرّف على الأنماطِ اللغوية وترميزها الخاص"[1]، ولمّا كانت اللغة نظامًا من العلامات اللغوية ووسيلة للتواصل بين النّاس، وإنّ هذا النظام قابل للتقطيع المزدوج؛ فإنّه سينتج عنه عند تقطيع مستويات تبدأ من الوحدات الصوتية الصغرى لتنتهي بالمستويات الكبرى، أي الدلالة التي هي أعقد مستويات التحليل. وخلاصة ذلك ينبغي على محلل النّصّ الكريم الإلمام بكل ما يحيط بالنصِّ من مؤثرات وموجّهات يفيض بها وعاء النّصّ، ولعلّ الموجّهات الداخلية هي الموجهات الأكثر قدرة على تحديد الدلالة وتوجيهها بما ينسجم وروح النّصّ المقروء. أما هذه الموجّهات الداخلية فيمكن إيجازها من خلال المستويات المعروفة في دراسة الخطابات اللغوية، وكالآتي:

1- أساليب تحليل النصوص ، محمد خليل الرفاعي، وفلك صبيرة، ومحمد علي حبش، من منشورات الجامعة الافتراضية السورية 1442هـ 2020م: ص20.

أولًا : المستوى الصوتي موجهًا داخليًا عند القدماء:

يعدّ المستوى الصوتي أول مراحل التحليل اللغوي نطقًا وتعاملًا ودراسة ومنه الانطلاقة في البناء والتركيب وإليه الرجوع في التحليل والتقطيع، فهو بمثابة اللبنة الأولى في النظام اللغوي[1].وقد تنبّه العرب إلى المستوى الصوتي منذ بداية المراحل الأولى للدرس اللغوي وسبقت مباحث الدراسة الصوتية بقية مباحث المستويات اللغوية الأخرى، فبدأت بذور هذا العلم على يد مجموعة من أعلام العربية على اختلاف ثقافاتهم ومذاهبهم وكان هدفهم الرئيس هو تهذيب ألسنةِ القرّاء لكي يعطوا حروف القرآن حقّها، فاعتبروا البحث الصوتي أساس البحث اللغوي ومستوى مميزًا من مستويات اللغة، وكان الخليل بن أحمد أول من فَطَنَ إلى ذلك وجعلَ المستوى الصوتي المُنطلق الأساس إلى المفاهيم اللغوية[2]. وقد أفادت الظاهرة الصوتية في تراثنا العربي القديم عدّة حقول معرفية فقد تناولها النحوي والبلاغي والفيلسوف والناقد وعالم التجويد كلٌّ من الجانب الذي يخدم فيه العلم، فالدرس العربي القديم منفتح على الكثير من العلوم وموزع فيما بينها، الأمر الذي نتج عنه تحليل الظاهرة الصوتية التي أغنت حقل المستوى الصوتي، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ المستوى الصوتي العربي لم يتناوله مصدر واحد ولم يتناوله عالم واحد بل تناثر بين مصنفات اللغة العربية المختلفة[3]. من خلال ما تقدّم يمكن تعريف المستوى الصوتي بأنّه "علم يدرس العنصر الأول الذي تتكون منه اللغة، أي أنّه يدرس الصوت المفرد في ذاته أو مع غيره"[4]، ولم يغب عن المدونة التفسيرية -بوصفها المتن المشكل لهذه الدراسة- البعد الصوتي في توجيه الدلالة، فقد ذهب الفخر الرازي -مثلًا- إلى أنّ الإنسان خُلقَ ليستعمِل كل الوسائل المتاحة لهُ ومنها استعماله للأصوات فيقول: إنّ للصوتِ وجوهًا،

1- ينظر: مستويات التحليل اللغوي، فايز صبحي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2010م: ص35.

2- ينظر: التعليل الصوتي عند العرب في ضوء علم الصوت الحديث – قراءة في كتاب سيبويه- ، عادل نذير بيري الحساني، مركز البحوث والدراسات الاسلامية، ط1، بغداد،1430هـ 2009م: ص26-27.

3- ينظر: المستويات اللغوية وأثرها في توجيه المعنى من خلال تفسير الرازي، فايزة طيبي أحمد، اطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر ، كلية الآداب واللغات الشرقية ،2016هـ2017م :ص133.

4- التطبيق الصرفي، عبد الراجحي ، دار النهضة، بيروت ،(د.ت) :ص7.

أوّلها: "إنّ النفس يكون عند الإخراج سببًا لحدوث الصوت، والأصوات عند تقطيعها تكون سببًا لحدوث الحروف المختلفة وتحصل هذه المعاني من غير كلفة ومعرفة بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما، والثاني: إنّ هذه الأصوات كما توجد تفنى، فعند الاحتياج إليها تحصل وعند زوال الحاجة تفنى وتنقضي، والثالث: إنّ الأصوات بحسب تقطيعات كثيرة في مخارج الحروف تتولد منها الحروف الكثيرة"[1]، وينتهي الفخر الرازي إلى حصر العملية الصوتية في ثلاثة عناصر هي: وجود جسم في حالة تذبذب، ووجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة من الجسم المتذبذب، ووجود جسم يستقبل الذبذبات[2].

وحين العودة إلى سورة الكوثر: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ نجد معاني هذه السورة جاءت في قالب صوتي معجز يبدأ من صوتها العميق المجهور الأول (الهمزة) المكسورة في (إنّا)، فعندما يُبدأ في قراءة هذه السورة التي أول أصواتها الهمزة "تنطبق فتحة المزمار انطباقًا تامًا فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ثمّ تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجاري وهذا الصوت ينتج الهمزة"[3] فالسورة تبدأ بصوت شديد تغلق معه فتحة المزمار غلقًا تامًا، ولا شكّ أنّ هذه العملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر، فبدأت بصوت الهمز التي يجذب المتلّقي عند النطق به، تشدّك بعدَ ذلك نونان مدغمتان تتخذ غنّتهما من الفتحة الطويلة مجالًا تمتد فيه[4]. وقد جاء في مفاتيح الغيب أنَّ مفردة (نا) تارة يراد بها الجمع وتارة أخرى يراد بها التعظيم، فأما الأول فقد دلَّ على أنّ الإله المعطي من دون حدّ هو إله واحد، والثاني هو الذي يكون محمولًا على التعظيم، ليحمل ذلك الوقع الصوتي الجذّاب في السياق[5].

1- مفاتيح الغيب،:1\37.
2- ينظر: المصدر نفسه:1\42.
3- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة ،(د.ط) مصر ، (د.ت) :ص77.
4- ينظر: الأصوات اللغوية، ابراهيم انيس:ص77.
5- ينظر: مفاتيح الغيب،:32\313.

وفي قوله تعالى:﴿**أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ الذي قيل في تفسيره عدّة وجوه كان أبرزها الخير الكثير، واستمرار نسل الرسول الكريم من فاطمة (عليها السلام)[1]، قد يجد الباحثون في أصوات هذه الآية عظمة هذا الخير ودوامه بغض النظر عن كنهه، ففي صوت الطاء تفخيمًا يملأ فمك لأنّها "صوت شديد مجهور فيها يندفع الهواء مارًا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثمّ يأخذ مجراه في الحلق والفم"[2]، وصوت الثاء كذلك (صوت مجهور) يدل على البث والبسط، وفي صوت الراء تكرار "لأنّ في الراء صفة مميزة هي تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها"[3] إذا ما أسكنت بالوقف "ودلالة على الشيوع كما تجد في حركة الفتح التي تحملها هذه الجملة من دون الكسرة والضمة اتساعًا نطقيًا فهي أوسع الأصوات اللغوية مخرجًا"[4] فضلًا عن ذلك التتابع الصوتي في المقطعين(طيـ) و(كو). بعدَ تأكيد هذا العطاء الكثير وجّه الرسول ﷺ "إلى القيام بما يضاهيه من الشكر الأوفر وتسليمه لترك المبالاة بقول ابن وائل، وامتثالًا لقول الله عز وجل:﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ وقصد باللامين[5] التعريف بدين العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير إلهه وتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم وإخلاص العبادة لوجهه الكريم"[6].وقد جاء توجيه هذه الآية :﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ مؤطّرًا بتنغيم الأمر الذي يقع في الفعلين (صلّ) و(انحر) وهذا الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق يحقق وضوحا سمعيًا عالِيًا يوائم مكانة هذا التوجيه الذي يمثل محور الرسالة المحمّدية[7]. وفي نهاية السورة يتوعّد الله شانئ الرسول ﷺ وهو العاص بن وائل بالبتر والقطع –كما مر بنا سابقًا- النزول

1- مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي:32\315. وهذا ما قاله أيضًا ابن عربي: فإنّك باقٍ ببقاء أُمتك الذين هم ذريتك من أهل الإيمان، وعدوّك هو الفاني الهالك الذي لا يوجد ولا يذكر ما بقي الدهر. ينظر: تفسير القرآن، محي الدين ابن عربي، دار مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط1، بيروت، 1439هـ 2018م:2\433.

2- الأصوات اللغوية، إبراهيم انيس:ص51.

3- المصدر نفسه: ص58.

4- التحليل الصوتي للنص، مهدي عناد احمد قبها، تحقيق محمد جواد النوري، دار جامعة النجاح الوطنية، ط1، فلسطين،1432هـ 2011م.ص126.

5- يقصد بذلك لام (لربّك) واللام الاخرى المحذوفة في قوله تعالى : (وانحر) اي وانحر له.

6- إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري:58.

7- التحليل الصوتي للنصّ:ص126.

"أنّ النبي محمّد ﷺ كان يخرج من المسجد والعاص بن وائل السهمي يدخل، فالتقيا فتحدثا، وصناديد قريش في المسجد، فلمّا دخل قالوا: من الذي كنت تتحدث معه، فقال: ذلك الأبتر"[1] فأنزل الله تعالى :﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾. إنّ في كلمة (شانئ) ثقل موسيقي يصور شدة بغض ذلك الرجل للرسول ﷺ ويعود هذا الثقل الموسيقي إلى جميع أصوات هذه الكلمة ما عدا النون التي تحتاج إلى جهد كبير لنطقِها، كما يعود إلى ترتيب هذه الأصوات في الكلمة، فصوت الهمزة مثلًا يكون أثقل على اللسان إذا كان في وسط الكلمة او آخرها[2].

أمّا كلمة (الأبتر)، فجميع أصواتها تدل على القطع وعدم الاستمرار ما عدا صوت الراء "الذي يمنع الصوت أن يجري فيه"[3]، وقد يدل انقطاع النفس هذا على موافقة الكلمة التي تدور حول استئصال القطع (الأبتر، من لا خير فيه، الحقير الذليل، من لا عقب له)[4]، وهذه المعاني التي تجسدها أصوات المفردة تصور لنا شدة تحقير القرآن الكريم لمن آذى الرسول الكريم، مما يؤكد ارتباط الصوت بقصدية النصّ القرآني هنا .وإذا نظرَنا للسورة نظرة شاملة نجد فيها وضوحًا سمعيًا عالِيا يعود إلى غلبة الأصوات الشديدة، وهذا الوضوح السمعي العالي يمثل عنصرًا مهمًا من العناصر التي تحقق موسيقى لغوية متميزة في السورة، ومن هذه العناصر التي تميز موسيقى السورة هو "التقارب والتساوي بين آياتها الثلاث بعدد الصوامت والمقاطع الصوتية، إذ احتوت الآية الأولى على (12) صامتًا و(9) مقاطع، وتحتوي الآية الثانية على (12) صامتًا و(8) مقاطع صوتية، وتحتوي الآية الاخيرة على (13) صامتًا و(10) مقاطع صوتية، وهذا التقارب يضبط إيقاع السورة وينظّمه"[5].

1- تفسير مجمع البيان ، الطبرسي:550/9.
2- ينظر: التحليل الصوتي للنص، مهدي عناد قبها :127.
3- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ،ط1، بيروت، دت:434/4.
4- ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن:626/4-627.
5- التحليل الصوتي للنص:ص128.

ولكلّ آية من هذه السورة ايقاعها المقطعي الذي يوائم مضمونها، ففي الآية الأولى تشعر بفيض النعمة ودوامها وتشعر بانطلاق اللسان بصورة سلسة، وتتابع المقاطع المتوسطة المفتوحة والمغلقة فيها بنسقٍ عذب، وقد جاءت المدود في الآية على نسق واحد لتساعد في اكمال الإيقاع واتساقه مع كثرة العطاء وامتداده، وهذا يتماشى مع ما قاله الزمخشري: كلّ من يلد إلى يوم الدين من المؤمنين هم أولادك وأعقابك وذكرك باقٍ مرفوع على المنابر وعلى لسان كلّ العالم[1]. بإشارة إلى دوام نسله إلى الأبد.

وفي المقابل يشعر القارئ بانقطاع الخير والتوتر النطقي الذي يحدثهُ تتابع المقاطع القصيرة في تركيب الآية الاخيرة، وفي صدد هذا يقول الزمخشري: كل من أبغضك من قومك لهو الأبتر لا أنت[2].

أمّا الآية الثانية فتحدث مقاطع أصواتها الصوتية القصيرة شيئا من الثقل يجعل قراءتها متأنية تأنيًا يتفق مع قداسة النصّ الكريم ومكانته العليا[3]. وفي شأن هذه الآية قال العلامة الطبرسي:"إذا مننا عليك بإعطاء الكوثر، فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر"[4]. وهذا الأمر يتطلب التأني في قراءة النصّ القرآني. وهكذا ذكر محي الدين بن عربي في تفسيره، إذ قال في هذه الآية: "إذا شاهدت الواحد في عين الكثرة فصلِّ بالاستقامة الصلاة التامة بشهود الروح وحضور القلب وانقياد النفس وطاعة البدن بالتقلب في هياكل العبادات، فإنّها الصلاة الكاملة الوافية بحقوق الجمع والتفصيل"[5]، وكما معروف أنّ قوام الإسلام على الصلاة، وهي عمود الدين لذلك جاءت مقاطع هذه الآية بشيءٍ من التأني يتفق مع ما في مضمونها من معان تدعو إلى ردّ قول الشانئين بالكلمة والصلاة والصبر والتأني.

1- ينظر: التحليل الصوتي للنص: ص129. وإعجاز سورة الكوثر: الزمخشري:ص56.
2- ينظر: إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري: 55.
3- التحليل الصوتي للنص: ص129.
4- الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي:20\429.
5- تفسير القرآن ، ابن عربي،:2\433.

ثانيًا: المستوى الصرفي موجهًا داخليًا عند القدماء:

هو المستوى الثاني من مستويات التحليل اللغوي الذي يعنى بدراسة الكلمة، وقد عرّفه علماء العربية أنّه "العلم الذي تعرف به كيفية صياغة الأبنية العربية وأحوال هذه الأبنية التي ليست بناءً ولا اعرابًا، بل أنّها على (هيئة الكلمة)، ومعنى ذلك العرب القدماء فهموا الصرف على أنّه دراسة لبنية الكلمة، وهو فهم صحيح في الإطار العام للدرس اللغوي"[1]. أو أنّه ذلك المستوى الذي يعنى بدراسة الصيغ اللغوية وخاصةً تلك التغيرات التي تعتري صيغ الكلمات فتحدث معنى جديدًا[2].بمعنى أنّ المستوى الصرفي يشمل الكلمة المفردة في حال انعزالها عن التركيب أي يتعامل مع الكلمة وبنيتها عن طريق تحليلها إلى عناصرها الصرفية المختلفة، وهذا لا يعني عدم وجود أي ارتباط بين موقع الكلمة في الجملة ووضعها التصريفي، الأمر الذي يمكّن الدارس من صون اللسان من الخطأ في نطق المفردات واللحن، ومن معرفة سعة كلام العرب شاذّه ومطّرده بمراعاة قواعد تخلو مفردات الكلام من مخالفة القياس التي تخلُّ بالفصاحةِ والبلاغة والكلام كما يمكّن من معرفة بنية الكلمات ومعانيها خلال استعمالها، لأنّه يتناول الكلمة خارج التركيب فيدرس صيغها والتغيرات التي تطرأ عليها من نقصٍ أو زيادة[3].

ومما تجدر الإشارة إليه إنّ مباحث علم الصرف في العربية لم تكن مستقلة بذاتها وإنّما كانت تدرس ضمن مباحث علم النحو الذي كان يعتمد في دراسته للغة على منهج معياري تعليمي يقوم على مبدأ الخطأ والصواب، وقد أشارَ القدماء إلى التصريف وعلاقته بالنحو حين تناولوا موضوع المعاني الوظيفية لصيغة الكلمة داخل التركيب ودلالتها، وربطوا بين الصيغة والدلالة أو بين الصيغة والحكم الشرعي حيث كان لآراء الأصوليين دلالات لصيغ

1- تفسير القرآن ، ابن عربي: ص7.
2- أُسس علم اللغة، ماريو باي ،ترجمة ،أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب، ط8، القاهرة،1419هـ 1998م :ص43.
3- ينظر: المستويات اللغوية وأثرها في توجيه المعنى من خلال تفسير الرازي، فايزة طيبي أحمد: ص51.

الأمر[1] أيّ أنّه علم يهتم بدراسة بنية الكلمة واشتقاق الكلمات وتصريفها ويهتمّ بتغيير أبنية الألفاظ للدلالة على المعاني المختلفة.

وفيما يخصّ السورة فإنّها بدأت بكلمة(أعطيناك) في الماضي، بصيغة الجمع الذي يدلّ على التعظيم ولم يقل (أعطيتك أو سنعطيك)[2]. وقد سبقتها (إنّ) التأكيدية، فزادت الكلمة فخامة، "وقد جاء الفعل بصيغة الماضي والتي تفيد الوقوع قبل زمن التلفظ ولم يقل سنعطيك لأنّ الوعد لما كان متحققًا عبّر عنه في الماضي مبالغة للدلالة على أنّه حدث وقع"[3]، كما يلاحظ وصل الضميرين ببعضهما، الضمير العائد على ربِّ العالمين والضمير العائد على الرسول ﷺ وفيه -ما لا يخفى- تشريفٌ للرسول كما قال الفخر الرازي "لم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع، لأنّه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف"[4].

وقد ذكرَ المفسرون أنّ الكوثر (فوعل) من الكثرة[5]، "وهي صيغة مشتقة تفيد شدة الكثر وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالبًا ولما وقع فيها مادة الكثر كانت صيغته مفيدة بناءً على إنّ الزيادة في المبنى تؤذن بزيادة المعنى"[6]، وفيه الواو زائدة والدليل على ذلك وجهان : أوّلهما القياس، وهو أنّ الواو وقعت مع ثلاثة حروف أصول، فحكم بزيادتها وهكذا حكم الألف والياء، والثاني الاشتقاق وهو مشتق من الكثرة لا واو فيها فكانت زائدة.

وكلمة شانئك جاءت على وزن فاعل و(شانئ) اسم فاعل، واسم الفاعل يدل على الحدث والحدوث ويمتاز عن غيره من المشتقات بدلالته على من قام بالفعل على وجه الاستمرار

1- التطبيق الصرفي، عبد الراجحي:ص5.
2- ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، محمّد حسين سلامة، دار الافاق العربية، ط1، مصر، 1423هـ 2003م:ص438.
3- المصدر نفسه:ص438.
4- مفاتيح الغيب:313/32.
5- ينظر: تفسير الكشاف: 6\445.وتفسير مجمع البيان:9\549. ومفاتيح الغيب:313/32.
6- البرهان في علوم القرآن، الزركشي:34/3.

والتجدد "فالوصف باسم الفاعل يدل على حدوثه في الحال والمستقبل"[1]، ويلاحظ في ميزة الإستمرار والتجدد أنّ شانئي الرسول ومبغضيه لا ينتهون بزمن معين بل هم مستمرون وهذا البغض والعداوة له ولدينه مستمرة أبدًا، ولكن كلِّ من يصفه على مر الزمان بالأبتر هو أبتر لا خير فيه أبدًا، وقال الفخر الرازي "إنّ العدو وصف النبي محمّد ﷺ بالقلة والذلة ونفسه بالكثرة والدولة فقلب الله تعالى الأمر عليه، وقال العزيز من أعزّه الله والذليل من أذلّه الله"[2]، فالكثرة والكوثر للنبي محمّد عليه الصلاة والسلام، والبتر والقطع والدناءة والذلة لمبغضيه.

ثالثًا- المستوى التركيبي موجّهًا داخليًا عند القدماء:

يعدّ المستوى التركيبي من أهمِّ المستويات التي يقوم عليها التحليل اللغوي، فهو يرتكز على العلائق اللغوية للجملة، "وقد تفطّن النحاة إلى أنّ التركيب هو الذي تضمّن كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى ليتمما معنى يفهمه المتحدّث، أي أنّ هنالك التحامًا بين ما يسمّى تراكيبه وما يسمّى معانيَ، وحول هذه المعاني التي ينبض بها التركيب يتمحور مفهوم النظم"[3] ومن أقدم علماء العربية القدماء اهتمامًا بدراسة العلاقات التركيبية هو عبد القاهر الجرجاني من خلال (نظرية النظم) التي تقوم على تناسق دلالة الالفاظ وفق المعاني وترتيب الالفاظ في النص على ترتيب المعاني في النفس، فيقول في نظرية النظم" أعلم أنّ ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع التي يقتضيه النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيءٍ منها، فهو تعلق الكل ببعضها البعض"[4]، ويؤكد أنّ لا معنى للنظم من غير توخي معاني النحو، بمعنى أنّ البنية اللغوية لا تكتفي بمجرد صياغة المفردات وفق القواعد الصرفية بل

1- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ط2، مصر، 1432هـ 2011م: ص30.

2- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي:32\316.

3- علم اللغة، محمود السعران، مقدمة للقارئ العربي :ص205-206.

4- دلائل الاعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار مطبعة المدني،1412هـ - 1992م: 81-82.

تحتاج إلى وظائف أخرى تسمّى (الوظائف النحوية) وهي التي تحتل فيها الكلمات مواقع معينة (الرتب) وتشير إليها علامات معينة تسمى (علامات الإعراب) والتي تدل على نوع العلاقة الوظيفية والدلالية التي تربط بين الكلمات أو المفردات داخل التركيب، فالنحو هو علم قواعد الجملة الذي يهتم بدراسة التراكيب والجمل، والأصل في التركيب أنّ الحروف بأصواتها وحركاتها وانضمامها لحروف أخرى، والكلمات في انساقٍ تؤدي موقعًا من الدلالة المعنوية وهذا ما بحثه العرب فيما يسمى بالإسناد[1]، أي إنّ التركيب يقوم بتنظيم العلاقات بين الحروف والكلمات داخل الجمل. فالمستوى التركيبي يهتم في ترتيب الجمل لأنّ الجملة هي لبنة الكلام وفقرة من عناصره الرئيس، فالتعبير اللغوي ينهض على الجمل[2]. وفي سورة الكوثر تختلف عدة جمل بين الإسمية والفعلية وبين الصغرى والكبرى، ففي الآية الأولى جملة كبرى تتضمن جملة صغرى فجملة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ هي جملة كبرى تتضمن ما أصله مبتدأ ثمّ صار اسمًا تبعًا لحرف التوكيد والنصب (إنّ) فأصل الجملة إنّ نحن، فأصل الضمير نحن مبتدأ دخلت عليه إنّ فصار اسمها وناب عنه ضمير المتكلمين (نا) فصارت(إنّا) فالضمير أصله مبتدأ، أمّا الخبر فهو الجملة الفعلية المكونة من الفعل (أعطى) والفاعل (نا) والمفعول الأول (ك) والمفعول الثاني (الكوثر) فهذه جملة اسمية مؤكدة متضمنة لجملة فعلية، فالجملة الاسمية توحي بثبوت النسبة بين الطرفين، وقد زيد هذا الثبوت تأكيدا ب(إنّ)[3] وقدْ أكدَّ ذلك الطبرسي في تفسيره، إذ قال: "انظر كيف انتشر دينه وعلا أمره وكثرت ذريته حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال"[4].

1- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، الدكتور تمام حسّان، دار الثقافة، ط1، المغرب، 1994م: ص185.

2- ينظر: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمّد سمير نجيب اللبدي ، دار مؤسسة الرسالة ، ط1، بيروت، 1405هـ-1985م: ص52.

3- ينظر: مفاتيح الغيب:314/32. وإعجاز سورة الكوثر: ص57.ومجمع البيان:549/9. وجمال اللغة القرآنية في سورة الكوثر، عبد الكريم حاقة، مجلة القارئ للدراسات الادبية والنقدية واللغوية، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد5، العدد3، 1444هـ 2022م: ص152.

4- تفسير مجمع البيان:549/9.

أمّا الجملة الصغرى فهي الجملة الداخلية ﴿**أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ فهي جملة فعلية والفعل يوحي بالاستمرار والتجدد. وهذا يتماشى مع ما قاله الزمخشري تمامًا إذ قال: "أراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أُمَّته"[1].

ولبيان ما سبق، فإنّ الله -تعالى- قدَّم المبتدأ وهو الفاعل من حيث المعنى على الفعل، والأصل أنْ يتقدم الفعل على الفاعل والعامل على المعمول وإذا تغيّر هذا الترتيب بلا شكّ يكون لغرض بلاغي، فالقياس أن يقول: (أعطيناك نحن أنت الكوثر) الفعل ثمَّ الفاعل ثمَّ المفعول به بالترتيبِ ولكن تقدّم ذلك للدلالة على الاختصاص[2].فهذا العطاء الكثير سيستمر ويتجدد مع الأيام، لذلك اختير لهذه الدلالة الجملة الفعلية التي توحي بالتجدد والإستمرار، كما قال فخر الرازي "زعموا أنّه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين، وقد كذبوا لأن الله -تعالى- هو مولاه، وجبريل وصالح المؤمنين، وأمّا الكفرة فلمْ يبقَ لهم ناصر ولا حبيب"[3]، والتعبير بالماضي عن المستقبل يدلُّ على وقوع الأمر -لا محالة- كما قال تعالى:﴿**وفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا انَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا**﴾[4]فانّه عبّر بالماضي كأن الأمر حصل وانتهى. عقبَ ذلك بفاء التعقيب الرابطة مستعارة لمعنى التسبب يشتقها معنيان "صح تسبيب الإنعام بالعطاء الأكثر للقيام بما يضاهيه من الشكر الأوفر وتسليمه لترك المبالاة بقول ابن وائل وامتثال قول الله عزّ من قال"[5]، والآية الثانية تضمنت جملة فعلية معطوفة على جملة فعلية أخرى "فجملة (فصل لربّك) تضمنت فعل أمر فاعله مستتر، فهو فعل وفاعل معًا وشبه جملة (لربّك) ويراد منه تخصيص الصلاة لهُ من دون سواه، أمّا الجملة المعطوفة (وانحر) تضمنت كسابقتها فعلًا مستترًا فيه فاعله وشبه الجملة (لربِّك) المحذوف الذي دلَّ عليه شبه الجملة السابق، والتقدير وانحر لربِّك"[6].وفي

1- إعجاز سورة الكوثر:ص56.

2- ينظر: جمال اللغة القرآنية في سورة الكوثر، عبد الكريم حاقة:ص152. و قراءات في سور القرآن - قراءة في سورة الكوثر-، الشيخ محمد حسين الأنصاري: ص31.

3- مفاتيح الغيب:314/32.

4- سورة النبأ :19-20-21.

5- إعجاز سورة الكوثر: ص57.

6- مجمع البيان:549/9. وجمال اللغة القرآنية في سورة الكوثر: ص152.

هذه الآية قال الزمخشري: "صرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر وفيه إظهار لكبرياء شأنه وإنافة لعزّة سلطانه، وعلم بهذه الصفة أنّ من حق العبادة أن يخصّ بها العباد ربَّهم ومالكهم، ومن يتولى معايشهم ومهالكهم، وعرض بخطأ من سفه نفسه ونقضَ قضية لُبّه وعبد مربوبًا وترك عبادة ربّه"[1]، وهاتان الجملتان (فصل لربِّك، وانحر لربِّك) توحيان بالتجدّد والاستمرار فالأمر بالصلاةِ مستمر، والأمر بنحر الأضاحي مستمر لكون ذلك نسكًا مستمرًا إلى الأبدِ، لذا اختير لهذه الدلالة جملةٌ فعلية توحي بالتجدد والاستمرار. أمّا الآية الأخيرة ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ فقد جاءت مبدوءة بـ(إنّ) لكونها تفيد تأكيد الخبر وتصلح لتقدير القسم كذلك، وكأنه أقسم على هذا، "ولم يسم شانئ الرسول ليشمل كل من اتصف أو سيتصف بهذه الصفة القبيحة، فضلًا عن أنّها تفيد حصره به، فبسبب شنئه له ستكون هذه صفته، وقد أتى بضمير يمكن أن يكون ضمير فصل فيكون مؤذنًا بالاختصاص، وهو يفيد التأكيد كذلك، لأنّ الإسناد سيكون مرتين"[2]، بمعنى هنالك جملة كبرى متضمنة جملة صغرى، وهذا يعني أنّ جملة ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ جملة كبرى وجملة (هو الأبتر) جملة صغرى، وهاتان الجملتان كلاهما جملة إسمية تدلّ على الثبوت وتوحي بأنَّ شانئ الرسول ثبتَ لهُ وتأكَّد أنّه أبتر[3]. وفي جو هذه الآية قال الفخر الرزي: فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبقَ من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء والأئمة كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم[4].

1- إعجاز سورة الكوثر:ص59.
2 - قراءات في سور القرآن قراءة في سورة الكوثر، الشيخ محمد حسين الأنصاري: ص43.
3- ينظر المصدر نفسه:ص153.
4- ينظر: مفاتيح الغيب:315/32.

رابعًا ـ المستوى الدلالي موجّهًا داخليًا عند القدماء:

هو فرع من فروع علم اللغة ومستوى من مستوياته الأربع شأنه شأن العنصر الصوتي والصرفي والتركيبي. ويعرف بأنه "دراسة المعنى، أو العلم الذي يدرس المعنى"[1]أو أنّه "ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في المعنى حتى يكون قادر على حمل المعنى"[2]. يركّز علم الدلالة في معاني الكلمات المفردة ومعاني الكلمات داخل السياق في النص، ويهتم في المعنى الموجود في الرمز أو الصورة ويعتني أيضًا في التطور الدلالي والترادف والاضداد والمشترك اللفظي على غرار المعنى اللغوي[3].

لقد اهتمَّ العرب في الدلالة بشكلٍ عام إلّا أنّ البحث في دلالات الكلمات أهم ما لفت اهتمامهم وآثارهم، "وتعد الأعمال اللغوية المبكرة عند العرب من مباحث علم الدلالة مثل تسجيل معاني الغريب في القرآن الكريم ، والحديث عن مجاز القرآن الكريم، وحتى ضبط المصحف بالشكل من أوائل الأعمال الدلالية"[4].

وقد كانَ لدورِ التوجيه القرائي الدلالي أثر مهم في آيات السورة الثلاثة، ففي الآية الأولى دلالة على عطيةٍ كثيرة مستندة إلى معطِ كبير، ومعنى هذا أنّ في قول الله عز وجل (إنّا) الدال على العظمة حيث جمع ضمير المتكلم بعظم الربوبية إشارة الى عظمة العطاء و المعطي "فتأمل كيف إنّ من أُسند إليه سداء هذه العطية وايتاء هذه الموهبة هو ملك السموات والأرض ومالك البسط والقبض وكيف وسع العطية وكثرها وأسبغها، ووفرها فدلَّ بذلك على عظم طرفي المعطي، والمعطى وعلى جلالِ جنبي المسدي والمسدى عليه وقد علم أنّه إذا كان العطاء كثيرًا فيا لها من نعمة مدلول على كمالها مشهود بجلالها"[5]. ويرى الفخر الرازي في قوله تعالى: (أعطيناك الكوثر)، ولم يقل (اتيناك الكوثر) سببًا من وجهين: "أحدهما أنّ الإيتاء يحتمل أن يكون واجبًا وأن يكون تفضّلًا، أمّا الإعطاء فإنّه أشبه

1- علم الدلالة ، محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والطباعة، الأردن،1421هـ - 2001 :ص13.
2- علم الدلالة، أحمد مختار، دار عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1405هـ - 1985م: ص11.
3- ينظر : المصدر السابق:ص14.
4- علم الدلالة، أحمد مختار: ص19-20.
5- إعجاز سورة الكوثر:ص56.

بالتفضل فقوله:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ يعني هذه الخيرات الكثيرة وهي الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل في الدنيا والآخرة محض التفضل منّا إليك وليس منه شيء على سبيل الاستحقاق والوجوب، وفيه بشارة من وجهين: أحدهما أنّ الكريم إذا شرع في التربية على سبيل التفضل، فالظاهر أنّه لا يبطلها، بل كان كل يوم يزيد فيها والآخر: أنّ ما يكون سبب الاستحقاق، فإنّه يتقدر بقدر الاستحقاق، وفعل العبد متناهٍ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهيًا، أما التفضل فإنّه نتيجة كرَم الله غير المتناهي، فيكون تفضله أيضا غير متناه، فلما دلَّ قوله: (أعطيناك) على أنّه تفضّل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبدًا"[1]، وقال الشيخ الطبرسي العطاء على وجهين "إعطاء تمليك وإعطاء غير تمليك، وإعطاء الكوثر إعطاء تمليك كإعطاء الأجر وأصله من: عطا يعطو"[2].أمّا في دلالة (الكوثر) فقد أورد فيه المفسرون[3]، أكثر من عشرين وجه كان أبرزها أنّه الخير الكثير وامتداد ذرية رسول الله من فاطمة -عليها السلام- ونهر في الجنة، وقيل أنّه النبوة والشجاعة والإسلام. وفي لفظة (فصلِّ) قيل في دلالة الفاء أنّها للتعقيب "مستعارة لمعنى التسبب يشتقها معنيان، صح تسبيب الأنعام بالعطاء الأكثر للقيام بما يضاهي الشكر الأوفر، وتسليمه لترك المبالاة"[4]، وأمّا دلالة (صلِّ) هو الأمر في الصلاة، وإن قيل الأقرب للنعمة الشكر لما قال فصلِّ ولم يقل فاشكر؟ فكانَ جواب الفخر الرازي في ذلك: هو أنّ الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان، الأوّل: يتعلق في القلب هو إنّ النعمة منه لا من غيره، والثاني: يتعلّق في اللسان وهو أن يمدحهُ، والثالث: يتعلق في العمل وهو أن يخدمه ويتواضع لهُ، والصلاة جامعة لهذه المعاني بل شاملة لأكثر من هذه المعاني فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة، لذلك أنّ مفردة الصلاة أحسن وأشمل.[5] وقال الطبرسي في دلالة (فصلّ) أرادَ الصلاة بعينها؛ لأنّ مشركي قريش كانوا يصلّون وينحرون لغير الله، فأمره أن يصلّي لله تعالى[6].

1- مفاتيح الغيب:314/32.
2- تفسير مجمع البيان:9\548.
3- تفسير الكشاف:445/6. وتفسير مجمع البيان:550/9. ومفاتيح الغيب:314/32.
4- إعجاز سورة الكوثر: ص57.
5- ينظر: مفاتيح الغيب:315/32.
6- تفسير مجمع البيان:550/9.

وفي دلالة اللام في قوله تعالى(لربّك) فوائد منها: هذه اللام للصلاة كالروح للبدن فهي تحيي ذكر الله، والفائدة الثانية: أنّ مشركي قريش كانوا يصلون للمراءاة كما ذكروا في السورة المتقدمة، فصل أنت على سبيل الإخلاص لا على سبيل الرياء[1]. والمراد في دلالة قوله: (وانحر) هو نحر البدن، فهو فعل يتعلق بالصلاة أمّا قبلها أو بعدها أو فيها. وفي الآية الاخيرة أكدَّ جانب الرد بـ(إنَّ) لاشتمال الكلام على القصر، وفي قوله (شانئك) ذكر القرآن مبغض الرسول بصفتهِ ليتناول كلِّ من أتى بمثل حاله[2].وذكر في قوله (الأبتر) حقيقته مقطوع الذنب، وغلب على المقطوع ذنبه من الدواب تشبيهًا بالدابة المقطوع ذنبها وهو تشبيه معقول بمحسوس، وقد شبّه الحرمان بالذكر الطيب، فكأنه يقول: إنّ شانئك ومبغضك وحاسدك هم المقطوع أثرهم الذين لا يبقى لهم ذكرٌ جميل[3].

وخلاصة القول: فإنَّ المفسرين القدماء تعاملوا مع نصّ الكوثر على أنّه نصٌّ مزودٌ بقصدية إخبارية حاول كلّ منهم الوصول إليها بطريقتهِ الخاصة من دون التفريط بما يمكن أن نسميه (المعنى الحرفي لألفاظه) ولاسيما أهمّ هذه الألفاظ وبؤرة الاشعاع في النصّ كلّه (الكوثر) باعتبار ذلك المعنى الحرفي يشكّل هدف القراءات المختلفة ومنطلقها في الوقت نفسه، مما يؤكّد الفكرة التي ركزت عليها نظرية التلقّي، والقائمة على مبدأ كون النصوص الثرية قادرة على توليد الدلالات المتعدّدة بما تملك من طاقة خلّاقة وغنية بالتدليل.

1- مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي:315/32.
2- ينظر: مفاتيح الغيب:317/32.وتفسير مجمع البيان:9\550.
3- ينظر: إعجاز سورة الكوثر:ص55. ومفاتيح الغيب: 317/32. وتفسير مجمع البيان: 549/9.

ومما سبق يتَّضح لنا إنَّ مجموعة المؤثرات التي تقع خارج النص تسهم بشكل مباشر في صناعة المعنى الخاص بـ(سورة الكوثر) التي تصدّى لها هؤلاء المفسرون القدامى، وممن تأثّر بهم من المفسرين اللاحقين، وقد اتَّضح مدى اهتمامهم بهذه الأمور التي كانت بمثابة أغلفة تحيط بالنص، وتوجّه المفسّر بوصفه قارئًا إلى معنى من المعاني التي يذهب إليها على ضوء أحد هذه الموجّهات الخارجية أو على ضوئها جميعًا. أمّا فيما يتعلّق بموجهات ما هو داخل ضمن النسيج اللغوي فقد اتَّضحَ أنَّ دور المستويات اللغوية وما تضفيه من موجّهات للقراءة تجعل الدارس يتحرك على ضوئها، وقد تبَيّن أنَّ هؤلاء المفسرين القدماء كانَ اهتمامهم في مؤثرات النص الخارجية (العنونة، ومكان النزول وزمانه، وأسباب النزول) أشمل وأوسع من المؤثرات الداخلية (المستويات الأربع)، وربَّما يعود السبب في ذلك إلى اعتماد المفسرين القدامى على المرويات المنقولة عن السلف، وهو ما سنجد حدّته تخف عند المفسرين المحدثين بسبب ضعف تأثير هذه المرويات عندهم، وإيلائهم موجّهات النص نفسه قدرًا من العناية والاهتمام يفوق ما للموجّهات الخارجية من العناية والقدر وكما سيتَّضح لنا ذلك في الفصل القادم.

الـفـصـل الـثـالث

موجّهات القراءة والتّلقّي في سورة الكوثر عند المحدثين (تفسير محمد عبده(ت1905م)، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور(ت1973م)، وتفسير الميزان للطباطبائي ت1983م)

المبحث الأوّل: الموجّهات الخارجّية عند المحدثين.

- عنوان السورة
- مكان النزول وزمانه
- أسباب النزول

المبحث الثاني: الموجّهات الداخلية عند المحدثين

- المستوى الصوتي
- المستوى الصرفي
- المستوى التركيبي
- المستوى الدلالي

المبحث الأوّل .. الموجّهات الخارجّية عند المحدثين

أولًا: الموجّهات الخارجية عند محمّد عبده (ت 1905م) في تفسيره جزء عمَّ:

يعدُّ محمّد عبده مفكّرا وعالم دين وفقيهًا وكاتبًا، ومجددًا إسلاميًا مصريًا، ولدَ في مصر سنة (1849م) وتوفى في مصر أيضًا (1905م)[1].

بدأ بإلقاء دروس في التفسير بالأزهر في غرة المحرم 1317هـ 1899م – ليتوقف عند الآية (125) من سورة النساء، وذلك في منتصف المحرم سنة 1323هـ، إذ توفى رحمه الله – في السنة نفسها، تاركًا تفسير جزء عمَّ، وخمسة مجلدات من تفسير المنار الذي سيتواصل نشره من بعده ليتوقّف عندَ سورة يوسف[2].

وقد يجدُ لهُ الباحث آثارًا في التفسيرِ من خلالِ دروسه التي القاها في الأزهر إذ كان تلميذه: "محمّد رشيد رضا[3] يكتب في اثناء القاء الدروس مذكرات يودّع فيها أهمّ أقوال الأستاذ الإمام محمّد عبده ثمّ يحفظ ما كتبَ ليمدّه بما يذكره من اقواله وقت الفراغ ، ثمَّ قام بعد ذلك بنشر ما كتب بمجلته (المنار)، بعد مراجعة استاذه لما كتب وتناوله له بالتنقيح والتهذيب"[4]. أمّا منهجه العام في تفسيره، فقد انفردَ الأستاذ الإمام من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد والتحرر من قيود التقليد "فاستعمل عقله الحر في كتاباته وبحوثه ولم يجرِ على ما جرى غيره من المفسرين المتقدمين ، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم وجمعت حوله المعجبين به"[5]، وهذه الثورة على القديم وهذه الحرّية العقلية كانَ لها أثرٌ بالغٌ في المنهج

1-ينظر: الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، أحميدة النيفر: ص57.

2- ينظر: المصدر نفسه: ص58.

3- محمّد رشيد رضا تلميذ الأستاذ الإمام محمّد عبده، ووارث علمه إذ انّه أخذ عنه فوعي ما أخذ، وألف في حياته وبعد وفاته، والذي أكمل (تفسير المنار) بعد محمّد عبده، فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحف عن أفكاره، حتى قال فيه الأستاذ الإمام (صاحب المنار ترجمان أفكاري).التفسير والمفسرون، محمّد حسين الذهبي:423/2.

4- التفسير والمفسرون:407/2.

5- المصدر نفسه :407/2.

الذي اتبعه الشيخ لنفسهِ وسار عليه في تفسيره، "فذلك المنهج الذي سار عليه الأستاذ الإمام هو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة، وذلك لأنّه يرى هذا هو مقصد القرآن الأعلى"[1] أيّ أنّه كانَ يرى الإسلام المفهوم بروحه الحقيقية هو أكمل مراحل النمو الديني[2]. إذ كان يصر محمّد عبده على إعطاء العقل دورًا أساسيًا، لتترتب على ذلك الآثار العلمية المهمة في النظام والأخلاق والمجتمع، "وبذلك فقد مهّد الطريق للمدرسة العقلية خاصة المعتزلة الجديدة"[3]. وكان يتطلع إلى تحرير العقول من التقليد والركود التي صاحبت القرون السابقة. أمّا مصادره في تفسيره "فأنّه كان يستعين ببعض آيات القرآن الكريم لفهم البعض الآخر منه ، خاصةً إذا تكررت الآيات في موضوع واحد، وكذلك يستعين بمصادره من بيان رسول الله ﷺ وبما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه"[4]. أمّا هدفه من التفسير، فهو التجديد الكامل للإسلام المتعلّق بالحياة الدنيوية، ليحقق بذلك الإصلاح الأخلاقي من خلال الإصلاح الديني، لأنّه يعتقد "إنَّ حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المُنزلة في وصفهِ، وما أنزل لأجلهِ من الإنذارِ والتبشير، والهداية والاصلاح"[5]. ويتَّضح أنّ في خطابهِ حرصًا من الناحية الشكلية بتعامل شبه مباشر مع النصّ المؤسس فهو لم يتعمّق في التجديد المنهجي بمفاهيم مختلفة وأدوات جديدة عن النصّ القرآني، بل أقصر عمله على إرشاد الناس لما في القرآن من عوامل السعي والتغيير من أجلِ بناء تمدن إسلامي يباري جميع الأمم في الفنون والعلوم والصناعات. وقوله يؤكّد ذلك: "كان همي محصورًا في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثّهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى

1- التفسير والمفسرون ، محمّد حسين الذهبي:2\407.

2- ينظر: مذاهب التفسير الاسلامي، اجنتس جولد تسيهر، ترجمة عبد الحليم النجار، دار اقرأ ، ط5، بيروت ،1413هـ -1992م:ص369.

3- التفسير والتفاسير الحديثة، بهاء الدين خرّمشاه، تحقيق عصام حسين، دار الروضة للطباعة و النشر، ط1، بيروت، 1991م: ص68.

4- التفسير والمفسرون، محمّد حسين الذهبي:2\424.

5- المصدر نفسه: 2\424.

المدنّية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأُمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة"[1].

ومما سلف نستطيع القول: أنّ محمّد عبده يحاول زرع بذور التأمّل في كتاب الله، ويأمل من المفسرين أن لا يفسحوا مجالًا للقضايا الخلافية، ويسعى أن يفهم القرآن ككل، لا بصورة تجزيئية، ويرى أنّ بهذا الفهم نستطيع حل التناقض الظاهري في بعض الآيات مع البعض الآخر.

أ-عنوان السورة موجّهًا خارجيًا عند محمّد عبده:

يقول محمّد عبده في مسمى السورة المذكورة: "وقد اختلف في معنى الكوثر اختلافًا كثيرًا، ولكن تعريف اللفظ يدلّ على أنّ المقصود به كانَ أمرًا معهودًا للسامعين تذهب أذهانهم إليه عند سماعه وإنْ كانوا لم يعهدوا وصفه بأنّه أكثر الكثير، وهو الذي كانَ يستقلّه أعداؤه والذي أعطيه النبي ﷺ وكانَ معروفًا لسامعي الكتاب هو النبوّة والدين الحقّ والهدى وما فيه من سعادة الدارين الدنيا والآخرة، ولهذا فإنّه يذكر للقارئ ما قالهُ جمع من الأئمة فقيل: إنّ معنى الكوثر هم أصحابه وأشياعه إلى يوم القيامة وقيل: هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقيل: هو الإسلام، وقيل: هو التوحيد، وقيل: هو النبوة، وقيل هو نور قلبه، وقيل: هو العلم والحكمة، وقيل: هو الإيثار، أيّ إيثاره بالمنفعة لغيره، وقيل : هو الفضائل الكثيرة التي وهبها الله إيّاه، وذهب جماعة من الأئمة إلى أنّه الخير الكثير والنعم الدنيوية والآخروية، فإنّ الله تعالى أعطى نبيّه من الخيرِ الكثير الذي يظنّه أهل قريش عظيم في نفوسِهم ما لا يحدُّ كثرتهِ. فقد كانَ يرى مُحمّد عبده في هذهِ المعاني التي ذكرت آنفًا أنّها تنطوي تحت معنى الخير الكثير، وقد أكدَّ ذلك من خلال تفصيل بعض أقواله، إذ قالَ: "فإذا جرينا على أنّ الكوثر هو النبوّة، أو العلم والحكمة، أو نور القلب وهو الهدى والرشاد، فكانَ المعنى من هذه المواهب هو الكثير الذي لا يكثره شيء، فبالهدى والرشاد معرفة طريق السعادة منبع القوة والعزة وهو الذي يحفظها بعد حصولها إذ القوة والمال إذا لم تكن معها الهداية التي تَقِيم صاحبها على الطريقِ المستقيم، فلا بقاء لها، ومصيرِها إلى الزوالِ

1- تاريخ الأستاذ الإمام محمّد عبده، محمّد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، 1906م :1\83.

ومصيرِ كثرتها إلى القلةِ ، كما قال الإمام علي -عليه السلام- العلم يحفظك وأنت تحفظ المال ولا سبيل لحفظ المال إلّا بالعلمِ، والجهل والضلال مضيعة كلّ شيء من جاهٍ أو مال"[1]،وكأنّه يقول إنَّ العلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ أعيانُهُم مفقودةٌ، وأمثالهُم في القلوبِ موجودةٌ ، فإنّه يرى كلِّ شيءٍ زائلًا إلّا العلم الذي يحفظ في الصدور، أمّا إنّ معنى الكوثر هو نهرٌ في الجنةِ، فأنّه لا يُفهم مِن معنى الآية، بل الذي يدلّ عليه سياق السورة، ويردُّ ذلك أيضًا إلى تواترِ الأخبار التي وردت فيه (ذلك النهر)، وإنْ ذهبَ جماعة إلى تواتر الأخبار فيه فيجب الاعتقاد بوجوده على وجهٍ عام، ولكن لا يصح التواتر برأي جماعة أو برأي آخرين، فحد التواتر ما تراه في القرآن تعرفه إلى إن يصل إليك، كذلك في أحاديث وأخبار هذا النهر فإنّها وإن كثرت طُرقها، ولَم تَصلْ هذا المبلغ، فلا يصدق عليها اسم المتواتر[2]. ومما سلف يرى محمّد عبده أنّ خبر وجود النهر من الأخبار الغيبية التي لا يجوز الاعتقاد بها إلّا بعدَ التيقن أنّه وردَ عن المعصوم، كما هو اليقين بوجود مكّة التي تعتقد بوجودِها قبل أن تراها[3].

ذكرَ مُحمّد عبده عدّة أقوال في معنى مسمّى السورة، غير أنّه أغفلَ ذكر معنى (الكوثر) بأنّه (ذرية الرسول من فاطمة عليها السلام) أو أنّه فاطمة بعينها، وهذا قد يكون تبعًا لقوله في تواتر الروايات وصحيحها، إذ قال: "يسهل على كلّ راوٍ الميل إلى تصديقِ ما يقال لهُ وهذا يخلُّ بشرط التواتر، لأنَّ أول شرط فيه أن لا يكونَ في الطبقاتِ رائحة التشيّع للمروي"[4]. قوله هذا قد يكون سبب رئيسي في إغفالِ معنى الكوثر بأنّه (فاطمة عليها السلام) أو أنّه لا بدّ لهُ أنْ يستند إلى حديث حقيقي يدلُّ على هذا المعنى، فإنّه آنفًا استبعد بأن يكون معنى الكوثر (نهر في الجنة)، وكان يعدّ ذلك من المغيبات.

1- شرح نهج البلاغة:18\346.
2- ينظر: تفسير جزء عمَّ ، الأستاذ الإمام مُحمّد عبده:ص167.
3- ينظر المصدر نفسه :ص167.
4- المصدر نفسه :ص168.

ب - مكان النزول وزمانه موجّهًا خارجيًا عند محمّد عبده:

يبتعد محمّد عبده عن النظرِ في علومِ القرآن، ويراعي في ذلك الوحدة بين مواضع الآيات القرآنية، كما أنّه كانَ قليل الاهتمام في أسبابِ النزول فأنّه كذلك لا يأبه لمكان النزول، فقد يرى إنّ هذه السورة مكّية[1]، وقدْ يكون ذلك تبعًا لطريقتهِ في تفسيره، إذ يتحدّث محمّد رشيد رضا عن ذلك، فيقول "كانَ يعتمد الأستاذ الإمام في دروسه وكتاباته في التفسير على عقله الحر"[2]، أو أنّه كان كما يقول الذهبي: لا يلتزم في التفسير كتابًا وإنّما يقرأ في المصحف، ويلقي ما يفيض الله على قلبهِ[3].

ج - أسباب النزول موجّهًا خارجًا عند محمّد عبده:

يبتعد الأستاذ الإمام مُحمّد عبده بعض الأحيان عن طريقة النظر المأثورة في مسائل الموجّهات الخارجية للنصِّ القرآني، وإن كانَ يراعي فيها صالح القرآن، فحين يذكر القدماء كثيرًا أسبابًا مختلفة للنزول ويفصّلون في الآيات حسب تتبعها التاريخي، يتجّه محمّد عبده إلى إثبات الوحدة بين المواضع القرآنية إلى مدى بعيد[4]. وفي ذلك يقول: "ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول أنّهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الالهي، ويجعلون القرآن عضين[5] بما يفككون الآيات ويَفصِلون بعضها من بعض، بل ربّما يفصلون بين الجمل الموثوقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكلِّ جملة سببًا مستقلًا، كما يجعلون لكلِّ آية من الآيات في المسألة الواحدة سببًا مستقلًا، ولكن مُحمّد عبده لا يُريدُ الاعتداد بذلك، فهو يرى أنّ كلِّ

1-: تفسير جزء عمَّ ص165. وعلى نهج أعمّ المفسرون الذين رأوا أنَّ السورة مكّية ، يدلوا محمد عابد الجابري دلوه في مكان نزول السورة ويقول: وقد اختلف الرواة والمفسرون حول هذه السورة، فقال بعضهم مدنية، نزلت بمناسبة وقعة الحديبية، بينما ذهب آخرون إلى أنّها مكّية، وقد صنفت مكّية في ترتيب النزول ورقم ترتيبها 15، ونحن راعينا في ترجيح مكّيّتها علاقة الشبه القويّة بينها وبين السور السابقة لها، واللاحقة، على مستوى الأسلوب والغرض من جهة، كما على مستوى معقولية سبب النزول الذي اعتمدناه من جهة أخرى. ينظر: فهم القرآن الحكيم، محمد عابد الجابري، مركز الدراسات العربية ط1، بيروت،2008م:ص 6.

2- التفسير والمفسرون ، محمّد حسين الذهبي:2\409.

3- ينظر: المصدر نفسه:2\409.

4- ينظر: مذاهب التفسير الاسلامية ، جولدتسيهر :ص372.

5- عضين: التعضيةُ: التجزئة والتفريق، القاموس المحيط :1\1312.

كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها"[1]. أمّا فيما يخص السورة المباركة فقد ذكرَ في أسباب نزولها: كانَ المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالِهم إذا رأوا أبناء النبي يموتون يقولون بتر محمّد، أيّ لم يبق لهُ ذكر في أولادهِ من بعده، ويعدّون ذلك عيبًا يلزمونه بهِ وينفرون به الناس من أتباعه، وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفّون بهم ويهونون أمرهم ويعّدون ذلك مغمزًا في الدين، ويأخذون القلة والضعف دليلًا على أنَّ الدين ليسَ بحق ولو كانَ حقًا لنشأ مع الغنى والقوة شأن السفهاء مع الحق في كلِّ زمان أو مكان غلبَ فيه الجهل، وكانَ المنافقون إذا رأوا ما في المؤمنين من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم، وخلو أيديهم من المال، وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين تمر بنفوسِهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق، فأرادَ الله تعالى أن يمحص من نفوس هؤلاء ويكبت الآخرين، فأكدَّ الخبر لنبيّهِ أنّ ما يخيله النظر القصير قليلًا هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة، ليؤكد الوعد بأنّه هو الفائز و أنَّ عدوّه هو الخائب الأبتر[2]، الذي يمحى ذكره ويعفى أثره، فأنزل الله تعالى هذه السورة[3]. والظاهر أنّه كانَ يرى في سبب نزول السورة أنّها إعلاء من شأن المسلمين كافة، وليسَ الرسول الكريم فحسب.

1- مذاهب التفسير الاسلامية ، جولد تسيهر:ص372-374.

2- كما حرص القرآن على تسلية النبي الأكرم وطمأنته مما عاناه في طفولته، ومن إعراض قريش عنه واتهامهم إياه بالجنون في نبوته ، حرص كذلك على الرد على رجال من قريش عمدوا إلى إذايته ورميه بأوصاف الإهانة والتحقير. فهم القرآن الحكيم، محمد عابد الجابري:65.

3- ينظر: تفسير جزء عمَّ ، الأستاذ الامام محمّد عبدة :ص165.

ثانيًا: محمّد الطاهر بن عاشور (ت 1973م) في تفسيره التحرير والتنوير:

يعدّ هذا التفسير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد) من أهمِّ تفاسير أهل السنة والجماعة المعاصرة، وقد وضع مؤلفة عشرًا من المقدّمات عالج فيها بعض القضايا الكبرى "فقد ابتدأ بتاريخ التفسير والفرق بينه وبين التأويل ثمّ طرح مسألة التفسير وعلاقته بعلوم اللغة والفقه والكلام لينتهي في المقدمة العاشرة إلى موضوع إعجاز القرآن وبلاغته ومبتكراته ونظمه"[1].

وقد وضّح ابن عاشور مراده من تفسيره معتقدًا أنّ التشبث بما دوّنه الأقدمون تحييد لإعجاز القرآن فعبر عن ذلك بقوله: "أقدمت على هذا المهم موقف الشجاع على وادي السباع متوسطًا في معترك أنظار الناظرين، حقًّا عليَّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها ، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من النفاد"[2]. وقد أشاد في جهود المتقدمون فقال: "هنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون، فنهذبه ونزيده، وحاشاه أن ننقضه ونبيده، علمًا بأنَّ دحض فضلهم كفران للنعمة وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة"[3]. وعلى الرغم من امتلاك ابن عاشور عقلية فذه ومعرفة تراثية فأنَّه "ظلَّ مقيدًا بالمنهج السلفي لا يستطيع عنه انفكاكًا"[4]. وقد تضمن تفسيره معظم التفاسير السابقة التي اعتمدها في تفسيره، وذكر أهمّها الكشّاف للزمخشري ومفاتيح الغيب للفخر الرازي والمحرر الوجيز لابن عطية[5]. ثمَّ بيَّن بعد ذلك أنَّ تفسيره لم يكن تكرارًا للتفاسير السابقة، بل أظهر فيه ما لم يذكروه فقال: "وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه، ما أجلبه من المسائل العلمية مما لا يذكره المفسرون،

1- الإنسان والقرآن وجها لوجه(التفاسير القرآنية المعاصرة) ، أحميدة النيفر: ص45-46.
2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، دار سحنون، ط1، تونس1984م :1\7-8.
3- المصدر ا نفسه: 1/6-7.
4- التفاسير القرآنية المعاصرة، أحميدة النيفر:ص47.
5- ينظر : التحرير والتنوير:1/7.

ولست أدّعي انفرادي في هذا الأمر فكم من كلام تنشئه تجد قد سبقك إليه آخر، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم"[1].

أ- عنوان السورة موجّهًا خارجيًّا عند ابن عاشور:

يرى ابن عاشور – موافقًا بعض مفسري السلف- أنَّ هذه السورة اشتملت على بشارة للنبي الأكرم إذ أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. فذكر في مسمّى السورة عدة أقوال كان على رأسها أنَّ دلالة الكوثر توحي بأنّه (الخير الكثير)، إذ قال: "فسَّر السلف الكوثر بأنَّه الخير الكثير وعن أنس بن مالك أنَّه نهرٌ في الجنة بدليل قول رسول الله: أنّه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خيرٌ كثيرٌ، وهو حوض ترد عليه امَّتي يوم القيامة، وعن عكرمة أنّه النبوءة والكتاب ،وعن الحسن هو القرآن، وعن المغيرة أنَّه الإسلام، وعن ابن عياش هو كثرة الإمة، وعن الماورديُّ أنّه رفعة الذكر وأنَّه نور القلب، وأنَّه الشفاعة"[2].

هذا مجمل ما ذكره ابن عاشور في سورة الكوثر في تفسيره بعدما تبنّى عدة أقوال كان أهمها الخير الكثير على خطى المفسرين السابقين من أهلِ السنّة والجماعة، إلّا أنّه أوضح بأنَّ الأبتر في سياق السورة يدلُّ على انقطاع نسل رسول الله من الذكور بقوله: إنَّ انقطاع الولد الذكر ليس بترًا لأنَّ ذلك لا أثر لهُ في كمال الإنسان.

ب- مكان النزول وزمانه موجّهًا خارجيًّا عند ابن عاشور:

بعد إن يستند على أقوال السلف يبيّن ابن عاشور أنَّ هنالك جدل في معرفة مكان نزول السورة، فيسأل في تفسيره؛ هل السورة مكّية أو مدنية ، ويجيب بقولهِ: "تعارضت الأقوال والآثار في أنَّها مكّية أو مدنية تعارضًا شديدًا ، فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتابِ النشر قال أجمع مَن نعرفهُ على أنّها مكّية"[3]. والآية الأخيرة تشهد لهم في ذلك بأنَّ السورة نزلت لترد على مشركي قريش.

1- التحرير والتنوير:8/1.
2- المصدر نفسه:573/30.
3- التحرير والتنوير:571/30.

وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة: بأنَّ السورة مدنية ويشهد لهم حديث أنس في ذلك إذ قال: "بينا رسول الله ذات يومٍ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً ثمَّ رفع رأسه، وقال أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ سورة الكوثر"[1]. والمعلوم أنّ أنس بن مالك قد أسلم مطلع الهجرة، فإذا كان استعمال لفظة (آنفًا) في حديث النبي الأكرم في ظاهر معناه هو الوقت القريب، فالسورة نزلت منذ مدة قريبة من حصول تلك الرؤيا. وقد اعتمد المفسر مدنية السورة في تفسيره. بقولهِ: "والأظهر أنها مدنية"[2]. أو أنَّه استند إلى ابن كثير الذي أقرَّ بأنَّ السورة مدنية بدليل الحديث المروي عن أنس بن مالك الذي ذكرناه آنفًا[3]. فقد ذكره في مطلع تفسيره بأنّه على آراء بعض المفسرين السابقين. وقد توالت قراءات السورة المباركة في هذا الباب إذ قال صاحب كتاب التفسير الوسيط للقرآن الكريم[4]: "الكوثر فوعل من الكثرة ومن مصاديقه أنّه نهر في الجنة وقيل: أنّه حوض للنبي في الموقف وقيل: أنه النبوة، والكتاب وقيل: أنّه القرآن وقيل: أنّه الإسلام، وفي الآية الثانية قال: المراد في الصلاة المداومة عليها، ما دمنا قد أعطيناك هذه النعم الجزيلة، فداوم على شكرك لنا، بأن تواظب على أداء الصلاة أداء تامًا، وبأن تجعلها خالصة لربّك، كما قال تعالى :﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[5] ثمَّ بشّره ببشارة اخرى فقال ﴿**إِنّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾، والشانئ هو المبغض لغيره والأبتر في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب والمراد به في سياق السورة الإنسان الذي لا يبقى لهُ ذكر ولا يدوم لهُ أثر، والمعنى أنّ مبغض الرسول الكريم وكارههُ هو المقطوع عن كلِّ خير والمحروم عن كل ذكر

1- التحرير والتنوير:571/30.
2- المصدر نفسه: 572/30.
3- ينظر: تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي(ت744هـ) ، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، السعودية، 1420هـ 1999م: 498/8.
4- محمّد سيد طنطاوي(ت1413هـ) ذكر في مقدمة كتابهِ: إنني كثيرًا ما أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية شرحًا لغويًا مناسبًا ثمّ أبين المراد منها ، ثمّ أذكر سبب النزول للآية أو الآيات ثمّ أذكر المعنى الإجمالي للآية أو الجملة عارضًا ما اشتملت عليه وجوه البلاغة والبيان والآداب والأحكام، وقال أنّه تجنب التوسّع في وجوه الإعراب أو الآراء الراجحة إذا تعددت الأقوال. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمّد السيد طنطاوي، دار النهضة ، ط1، مصر ، 1418هـ 1998م:10/1.
5- سورة الانعام:162.

حسن"[1]، وهذه الأسطر الأخيرة من قراءة محمّد السيد طنطاوي قد أوقعته في تناقض تام، إذ استبعد في مسمى السورة ما قاله في أواخر السورة، إذ قال في الأبتر الحيوان المقطوع الذنب ويعني به الإنسان الذي لا يبقى له ذكر ولا يدوم له أثر، وأدعم ذلك في قول ابن كثير في سبب نزول السورة الذي كان يخص ذرية الرسول، الذي قال فيه: كان العاص بن وائل إذا ذُكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنّه رجل أبتر لا عقب لهُ، وإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة، ثمَّ يدعم قول السدي في هذا السياق الذي قال فيه: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بتر، فلما مات أبناء النبي محمّد نزلت هذه السورة[2].

وأدلى صاحب تفسير المراغي دلوه في قراءة هذه السورة وقال في الآية الأخيرة:﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ إنّ "مبغضك هو المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة، أمّا أنت فستبقى ذريتك، ويبقى حسن صيتك، وآثار فضلك إلى يوم القيامة، وشانئوه ما كانوا يبغضونه لشخصه، لأنّه محببًا إلى نفوسهم، بل كانوا يمقتون ما جاءَ به من الهدى والحكمة، لأنّه سفّه أحلامهم، وعابَ معبوداتهم ونادى بفراق ما ألّفوه ونشأوا عليه، وقد حقق الله في شانئيه من العرب وغيرهم في زمنه ﷺ ما يستحقونه من الخذلان والخسران ولم يبق لهم إلّا سوء الذكر، أمّا النبي الأكرم ومن اهتدى بهديه فإن الله رفع منزلتهم فوق كل منزلة وجعل كلمتهم هي العليا"[3]، ومعنى ذلك أعلى الله ذكره وأذلَّ شانئه ما بقي الدهر.

ج - أسباب النزول موجّهًا خارجيًا عند ابن عاشور:

يرى ابن عاشور أنّ سبب نزول سورة الكوثر ردًّا على المشركين الذين وصفوا رسول الله بأنّه أبتر مدعمًا ذلك بقول الواحدي عن ابن عباس: "إنَّ العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله في المسجد الحرام عند باب بني سهم فتحدّث معه، وأُناس من صناديد قريش في المسجد فلما دخل العاص عليهم قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه،

1- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمّد السيد طنطاوي، دار النهضة ، ط1، مصر ، 1418هـ 1998م:15\522.

2- التفسير الوسيط للقرآن الكريم:15\523.

3- تفسير المراغي ، أحمد بن مصطفى المراغي، دار مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، مصر، 1365هـ 1946م :30\253.

فقال: ذلك الأبتر، وكان قد توفِّيَ قبل ذلك ابناء رسول الله القاسم وعبد الله فنقطع بموت عبد الله الذكور من ولده ﷺ وكانوا يصفون من ليس له ابنٌ بالأبتر[1] فأنزل الله تعالى هذه السورة"[2]. ويبين بأنَّ معنى الأبتر في سياق هذه الآية هو الذي لا خير فيه ولا عقبَ له، وهو ردٌّ لقول العاص بن وائل وغيرة ممن وصف رسول الله بهذا الوصف القاهر.

ويرى ابن عاشور حقيقة الأبتر المقطوعُ بعضهُ وغلبَ على المقطوع ذنبهُ من الدواب ويستعار لمن نقص منهُ ما هو من الخير في نظر الناس تشبيهًا بالدابة المقطوع ذنبها[3]. ويضيف أنَّ السورة نزلت ردّا على جميع الكافرين بقوله: إنَّ الشانئ يشمل كلِّ مبعضٍ لهُ من أهلِ الكفر، فكلّهم بترٌ من الخير ما دام فيه شنآنٌ للنبي.

ثالثًا: مُحمّد حُسين الطباطبائي(ت1983م) في تفسير الميزان:

هو السيد محمّد حُسين بن الميرزا علي أصغر شيخ الإسلام الطباطبائي التبريزي القاضي[4]. ولدَ مُحمّد حُسين الطباطبائي في مدينة تبريز في إيران سنة 1903م، ونشأ في اسرة اشتهرت قديمًا بالمعرفة، وكانت سلسلة أجداده الأربعة عشر جميعها من العلماء المعروفين في تبريز، وتوفّى رحمه الله سنة 1983م[5].

"تعلم العلّامة الطباطبائي في النجف في العراق ثمَّ أقام بمدينة (قمْ المقدّسة) أكبر مركز علمي لدى الشيعة في إيران، فضلًا عن اهتمامهِ في التكوينِ المذهبي والشرعي واللغوي

1- وهب أنّه لم يولد له البتّة، وإنّما اصطلح الناس على اعتباره نقصًا لرغبتهم في الولد بناءً على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاءَ الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمرٌ قد يعرض، وقد لا يعرض أو لمحبة ذِكر المرءِ بعد موتهِ وذلكَ أمرٌ وهميٌّ، والنبي ﷺ قد أغناهُ الله بالقناعة، وأعزه بالتأييد ، وقد جعل الله لهُ لسان صدقٍ في الآخرين لم يجعل مثلهُ لأحدٍ من خلقهِ، فتمحض أنَّ الذاتي بما علمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته وأنّ كماله العرضي بأصحابه وأمّتهِ إذ جعل الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم. التحرير والتنوير، ابن عاشور:30\577.

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور:30\576.

3- المصدر السابق :30\576.

4- ينظر: الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان، علي الاوسي، دار سبهر،ط1، طهران، 1405هـ 1985م:ص44.

5- الإنسان والقرآن وجهًا لوجه(التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، أحميدة النيفر، دار الفكر المعاصر،ط1، بيروت، 1421هـ 2000م:ص48.

منكبّاً على الفلسفةِ والمنطق، والكلامِ فهو أرادَ لعلمهِ أنْ يكون تقويمًا للمفسرين السابقين ومجالًا لجدلِ المخالفين ومناظرة المناوئين"[1].

و قدْ تركَ المفسرُ آثار علمية كثيرة، وهذا يدل على عنايته العالية بالعلم والعلماء، كما انّه يبعث اهتمامه وعنايته الفائقة في المتطلبات الحضارية والحاجات الفكرية، كتأليفه اصول الفلسفة[2] والأعداد الأولية[3]والشيعة في الإسلام والقرآن في الإسلام و العديد من العلوم الأخرى في اللغتين العربية والفارسية[4].

وفيما يخص منهجه العام فقد أوجزه الباحث في عدة نقاط:

1- توزيع آيات السورة المراد تفسيرها على مقاطع قرآنية أمّا لأنّها تعالج غرضًا من أغراض السورة أو لأنّها ينتظمها سياق واحد، وقد يكون المقطع آية واحدة أو بضع آيات، ولربّما يصل إلى عشر أو عشرين آية، وفيما يخص السور القصار فقد تناولها أغلبها مرة واحدة[5].

2- في بداية تفسير كلِّ سورة كدحَ المفسّرُ أن يضع بين يدي السورة غرضها الأساسي الذي عالجته والأغراض التي تعرضت لها آياتها، وقد اهتمّ المفسر باستقلالية السور في مضمونها ومقصدها، فهو يرى لكلّ سورة غرضًا معينًا لا يشبه أبعاض السور الأخرى، فالأغراض والمقاصد المحصّلة من السور مختلفة، فلكلّ واحدة من السور مسوقة لبيان معنى وغرض محصل في تمام السورة[6].

1- الإنسان والقرآن وجهًا لوجه: ص48.

2- جاء في خمسة أجزاء بالفارسية مع تعليقات قيمة لتلميذه مرتضى مطهري وقد طبع منه جزء واحد بالعربية بترجمة الشيخ جعفر السبحاني. الطباطبائي ومنهجه في تفسيره، علي الأوسي:ص53.

3- وفيه استخرج الأعداد من الواحد إلى العشرة آلاف بطريقة رياضية معينة أخذها عن استاذه الرياضي الشهير أبي القاسم الخوانساري. المصدر السابق نفسه:ص53.

4- دروس في التفاسير ومناهج المفسرين، فارس علي العامر، الغدير للطباعة والنشر، طهران، 1428هـ 2007م:ص121.

5- دروس في التفاسير ومناهج المفسرين:ص115.

6- تفسير الميزان، الطباطبائي:1\16.

3- إنّه ينبّه في بداية تفسيره على مكان نزول السورة (المكّي والمدني) وقدْ يتعرض أحيانًا لمناقشة بعض الأقوال في هذا الشأن وقدْ يردُّ بعضها لمخالفتها السياق العام للآيات[1].

4- يشرح في الآية معاني المفردات اللازمة بيانًا لغويًا بالقدر الذي يقرّب بيان المعنى وكشف المقصود معتمدًا في ذلك على كتب اللغة والتفسير من دونِ أن يستطرد في استقصاء أقوال أهل اللغة[2].

5- أعتمد الطباطبائي في تفسيره على مبدأ السياق في بيان المعنى، ثمَّ استعان بآيات القرآن الكريم إلى جانب السياق وهذه قاعدة أساسية في تفسيره، فقد كان يعتمد المفسّر على هذين المبدأين للوصول إلى معاني الآيات مؤيدًا إيّاها بالمأثور عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، مؤكدًا أنّه لا يُمكن عزلِ الآية عمّا قبلها وما يليها وعن ظروفها الزمكانية[3]. بمعنى أنّه يرى آيات القرآن لا تحتاج في تفسيرها إلى غير القرآن، إلّا في آيات الأحكام وبعض آيات المعاد والقصص، حيث يرى القرآن مفسّرا لنفسه بنفسه، وأنّ الآيات المتشابهة تُفسّر الآيات المحكمة والمبينة[4].

6- كان كثيرًا ما يبسّط الكلام بمنهجهِ العقلي فهو يعتمد على القواعد اللغوية والشرعية والبراهين العلمية وذلك يتضح من خلال مناقشة أقوال المفسرين في الجانب الفلسفي والكلامي بنزعة علمية[5].

1- ينظر: الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان :علي الأوسي:ص116.

2- المصدر السابق نفسه:ص116.

3- ينظر: الإنسان والقرآن وجهًا لوجه، أحميدة النيفر:ص50. وفي خصوص مبدأ السياق قال تعالى:﴿**اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ لو فسرت بمعزل عن السياق لأعطت معنى آخر هو أنّ الله خلق الناس وخلقَ افعالهم ولكن بملاحظة السياق نجد انّها واقعة حكاية قول ابراهيم لقومه وتنديده ايّاهم لعبادة الأصنام.

4- دروس في التفاسير ومناهج المفسرين، فارس علي العامر:ص124.

5- ينظر: التحقيق في منهجية تفسير القرآن بالقرآن في تفسير الميزان، السيد جعفر سيّدان، ترجمة السيد فاضل الرضوي، دار الولاية للنشر، ط1، مشهد ، 1435هـ 2014م :ص4.

أ-عنوان السورة موجّهًا خارجيًا عند مُحمّد حُسين الطباطبائي (ت1983م)

بعد أن فصّلنا القول في قيمة عنوان السورة أو مسمّاها نجد أنّ القرآن الكريم كانت فيه "عناوين السور القرآنية أو أسماؤها في البداية من المُحدَثات التي كرِهها العلماء أوّل الأمر، ثم انتهوا إلى إباحتها واستحبابها، فالعناوين التي كانوا يكتبونها في فواتح السور مُنوّهين فيها بأسمائها وما فيها من الآيات المكية والمدنية كانت لابدّ أن تثير معارضة عنيفة في الأوساط المحافظة؛ لأن كثيرًا من العلماء فضلًا عن عامة الناس كانوا يعتقدون أنّ هذهِ الأمور ليست توقيفية، وأنّ للصحابة فيها نصيبٌ غير قليل من الاجتهاد"[1] .

ولا بدَّ من التنبُّه إلى أنَّ بعض أسماء السور أشهر من بعض وألصق من غيرها، فضلاً عن إنّ بعض الأسماء اجتهادية وبعضها توقيفية، والإجتهادية أشبه بالأوصاف والألقاب وما تتسم به بعض السور مما أطلقه الصحابة "رضي الله عنهم" أو التابعين على هذه السورة أو تلك، تنويها بفضلها أو إبرازًا لعظيم معانيها، فالاسم واحد والألقاب متعدِّدة.

إنّ لكلِ سورة في القرآن عنوانًا خاصًا تعرف به وتنفرد به عن سائرِ المسميات الاخرى ، وإنّ هذه العنوانات "ماهي إلّا ثريّا لهذه النصوص الكريمة تنيرُ دروب السالكين إليها فيطلق على هذه العنوانات (ثريا النص القرآني) ثمّ يعرف هذا المصطلح بأنّه اضاءة الطريق الذي سيسلكه القُرّاء للإفصاح عن محتواه أو شفراته وما خفي من رموزه ومنحه مجالًا للتأويل"[2].

وفيما يخص (سورة الكوثر) ذكرَ محمّد حُسين الطباطبائي في مسمّى السورة عدة آراء إذ قال[3]: الكوثر هو الخير الكثير وقيل: هو نهر في الجنة وقيل: حوض النبي محمّد في الجنة أو في المحشر وقيل: أولاده وقيل: أصحابه وأشياعه الى يوم القيامة وقيل: علماء امّته، وقيل: القرآن وفضائله الكثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ**

1- مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح: ص97.

2- عتبة العنوانات الداخلية (أسماء السور)، هناء جواد عبد السادة، و أسعد مكي داود، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والانسانية ، جامعة بابل ، العدد 20، نيسان2015م :ص301.

3- تفسير الميزان، الطباطبائي :20\428.

الْعَظِيمَ﴾[1]، فالقرآن أعظم النعم قدرًا وأحسنها شأنًا وأرفعها مكانًا، لأنّه كلام الله الذي يخطُّ صراطه ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي نهاية ما يسأله سائله وغاية ما يأمله آمله[2]. وقيل: النبوّة، وقيل تيسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقيل: الإسلام وقيل التوحيد، وقيل: العلم والحكمة، وقيل فضائله ﷺ وقيل: المقام المحمود (مقام الشفاعة).

إلّا أنّه يُرجّح من بينِ هذهِ الأقوال بأنّ معنى الكوثر هو امتداد ذريّة الرسول الأكرم من فاطمة الزهراء -عليها السلام- فهي صلب الرسول الكريم وأولاده من صلبها، وهم الائمة الاثني عشر قادة الإسلام من بعد النبي الأكرم، والمنصوص عليهم بالإمامة والخلافة، وقد كانَ ذلك بسبب توجّه محمّد حُسين الطباطبائي، فهو كما معروف عنه من أبرز مفسري الشيعة في القرن العشرين، بالإضافة إلى ذلك أنّه أعتمدَ على سياق النص، إذ قالَ: "إنَّ كثرة ذرية الرسول هي المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبي محمّد ﷺ أو المراد بها الخير الكثير وكثرة ذريته مرادة في ضمن الخير الكثير، ولولا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: (إنّ شانئك هو الأبتر) خاليًا عن الفائدة"[3].وقد أكدَّ ذلك علي جابر خليفة في كتابهِ أسماء سور القرآن الكريم إذ قال: "فالقول بأنّ الكوثر فاطمة الزهراء وذريتها -سلام الله عليهم- وهو الصحيح – قال تعالى في سورة الضحى ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[4] لمقابلتهِ مع قوله تعالى ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ مضافًا إلى ما هو متعارف من الذبح أو النحر عند الذرية ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ أو الصلاة شكرًا لله تعالى على ذلك"[5].

ب - مكان النزول وزمانه موجّها خارجيًا عند محمّد حُسين الطباطبائي:

ما يذهب إليه الطباطبائي في مكان النزول وزمانه من الآيات، وما لذلك من أثر في منهجيته فإنَّه لهُ اسلوب وطريقة للتمييز بين ما هو مكّي وما هو مدني إذ يقول: "وللعلم

1سورة الحجر:87.
2- ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: 19\94.
3- تفسير الميزان، الطباطبائي:20\429.
4- سورة الضحى:5.
5- أسماء سور القرآن الكريم ونظرة في بعض آياته، علي خليفة جابر، ط1، النجف الاشرف، 1443هـ-2022م: 3\240.

بمكية السورة ومدنيتها ثمّ ترتيب نزولها أثر هام في البحوث المتعلقة بالدعوة النبوية وسيرها الروحي والسياسي والمدني في زمنه ﷺ وتحليل سيرته الشريفة، والروايات وحدها لا تصلح أن تنهض حجّة مُعتمدًا عليها في إثبات شيء من ذلك فلها من التعارض ما يسقطها من الاعتبار، فالطريق المتعين لهذا الغرض هو التدبر في سياق الآيات والاستمداد بما يتحصّل من القرائن والإمارات الداخلية والخارجية"[1]. فقد رأى الكثيرون من أهلِ التفسير بأن الطريق الوحيد إلى معرفة المكّي والمدني هو ما وردَ عن الصحابة في ذلك، والطباطبائي رأى في هذا مزيدًا من التحيّرِ والمتاهة لما عليه الروايات من تعارض بينها ، وقد أكدَّ على أنّ الطريق المتعين لتحقق ذلك هو الاعتماد على الروايات القطعية، والتدبر في سياق الآيات، من دون مجانبة العقل والاجتهاد. وعلى الرغم من اختلاف الروايات في مكّية السورة أو مدنيتها فقد رأى الطباطبائي أن مكّة المكرمة كانت مكان نزول سورة الكوثر مع إقراره بذكر بعضهم في الروايات المنقولة أنّها نزلت مرتين جمعًا [2] .

وقد أعتمد المفسر على سياق الآيات في استدلاله لمكان النزول من دونِ أن يستبعد الروايات في ذلك، فقد وقف عند كلمة (الأبتر) وفسرها بأنَّ الذي لا عقبَ له، وأولاد الرسول توفاهم الله آنذاك في مكة[3]، وكذلك من الروايات التي استدلَّ بها قول ابن عباس: "لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: أنت أخير أهل المدينة وسيدهم ؟ قال نعم، قالوا ألا ترى إلى هذا المنبتر يزعم أنّه خير منّا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، قال أنتم خير منه فنزلت سورة الكوثر"[4].

1- مناهل العرفان، الزرقاني: 1\196.

2- ينظر : تفسير الميزان، الطباطبائي: 20\428.

3- . ينظر: تفسير الميزان، 20\ 428. وفي فحوى هذا الكلام ذكر أحد الباحثين: "من البديهي أنّه يمكن أن يكون سبب النزول والتقارن مع الوقائع التاريخية أداة جيدة لمعرفة زمن نزول الآيات والسور.القرآن في مسار تطوره في تحليل البنية اللفظية والموضوعية، مهدي بازركان، ترجمة كمال السيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، د.ط، بيروت، دت :ص37.

4- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكرم الشيرازي:295

ج-أسباب النزول مُوجهًا خارجيًا عند محمّد حُسين الطباطبائي:

طغت القراءة التمجيديّة على سِواها من القراءات في مجال الدراسات العربية الحديثة "إذ اكتفى ممثّلوها بإعادة انتاج علماء القرآن والمفسرين القدامى، وأوهم بعضهم بإضفاء طابع الجدّة على مبحث أسباب النزول، ومعلوم أنّ كلّ استعادة أو محاكاة تكون –دائمًا- دون الأصول المنقولة عنها وهذا ما تجلى في تسليمهم بصحةِ أخبار أسباب النزول وبموافقتِها لمضمونِ الوحي وبأمانة الأجيال الإسلامية الأولى في نقلها"[1].

وقد استفاضت الروايات في سبب نزول سورة الكوثر، فقيل :إنّها نزلت فيمن وصف الرسول ﷺ بأنّه أبتر بعدما مات ابناه عبد الله والقاسم، وبذلك يندفع ما قيل: إنّ الرسول الكريم المنقطع عن قومهِ أو المنقطع عن الخير، فردَّ الله –تعالى- بأنّ الذين وصموا النبي الأكرم بالقطع، هم المنقطعون من خير الدنيا والآخرة[2].

وقد ورد في الأثر التاريخي: "كانَ أكبر أبناء النبي محمّد ﷺ القاسم ثمّ زينب ثمّ عبد الله ثمّ أم كلثوم ثمَّ فاطمة ثمّ رقية، فمات القاسم وهو أول ميت من ولدهِ بمكة ثمّ مات عبدالله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر فأنزل الله سورة الكوثر وفي حديث آخر: "توفي القاسم ابن رسول الله بمكة، فمرّ النبي ﷺ وهو آتٍ من جنازته على العاص بن وائل وابنه عمرو فقال حين رأى رسول الله ﷺ: إنّي لأشنؤه فقال العاص بن وائل: لا جرمَ لقد

أصبح أبتر فأنزل الله سورة الكوثر"[3]. وقد جاء في هذه الحادثة: "كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان، فلمّا مات ولد النبي محمّد ﷺ قال العاص: بتر محمّد (الرسول الكريم)[4].

1- أسباب النزول، بسام الجمل: ص46-47.
2- ينظر : تفسير الميزان:20\429.
3- تفسير سورة الكوثر، العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي:ص17.
4- تفسير الميزان::20\431.

ومما تقدم تبين أنّ أسباب نزول السورة في قراءة محمّد حُسين الطباطبائي مرتبط بموقف مشركي قريش الذين وصفوا الرسول بأنّه أبتر عند وفاة أولاده الذكور، فنزلت السورة تبشّر النبي محمّد ﷺ بالنعم الوافرة التي أنعم الله بها عليه وتصف عدوّه بالبترِ والقطع.

وقد توالت قراءات المفسرين المعاصرين ممن تلوا الطبطبائي في تلقي هذه السورة متأثرين برأيه، ففي(تفسير منّة المنان)، ينسخ السيد الشهيد الصدر رأي صاحب الميزان، بعدما أورد ما قاله المفسرون في معنى (الكوثر) مرجّحًا ما ذهب إليه العلّامة الطباطبائي على أنها تحيل على ذرية الرسول الكريم، حيث قال: "وقد اختلفت أقوالهم في نفس الكوثر اختلافًا عجيبًا فقيل :هو الخير الكثير وقيل :نهر في الجنة وقيل: حوض النبي في أمته وقيل: أصحابه وأشياعه إلى يوم القيامة ، وقيل: علماء أمته وقيل: القرآن وفضائله كثيرة وقيل النبوة ، وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل: الإسلام، وقيل: التوحيد، وقيل: العلم والحكمة وقيل: فضائله ﷺ وقيل: المقام المحمود، وقيل: نور قلبه الشريف"[1]، ويعلّق السيد الشهيد الصدر على هذه الأقوال، ويرى أنّها مصاديق من الكوثر وكلها ليست كوثرًا بالمفهوم، بل هي منّه بالحمل الشائع، ولكن على ظاهر قائليها وظاهر المفسرين كما هو ظاهر تفسير الميزان، لابدّ من الرجوع إلى حجّة في تعيين القول وإلّا تفسير القرآن الكريم بالرأي هو محرم، ويرى السيد الصدر الحجة في قراءة السورة أما ظاهر القرآن الكريم أو السنة الشريفة وأن اتبعناها لم يبق أمامنا الا معنيان أو ثلاثة[2].

والمعاني التي يراها أقرب لمعنى الكوثر هي: المعنى الأول : الذرية ، بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾[3] الذي قال فيها إنّ الأبتر هو من لا عقبَ له مؤيدًا صاحب الميزان في ذلك[4]، فيكون ذلك بمنزلة القرينة المتصلة على أنّ المراد هو الذريّة. والمعنى الثاني: هو(الحكمة) بدليل قوله تعالى:﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[5] فهي -

1- منة المنان في الدفاع عن القرآن، السيد محمّد الصدر :1\115.
2- ينظر: المصدر نفسه:1\115.
3- سورة الكوثر:1.
4- الميزان في تفسير القرآن:20\431.
5- سورة البقرة:269.

إذن- خيرًا كثيرًا بالحملِ الشائع بنصّ القرآن، فيكون بمعنى الكوثر. والمعنى الثالث: هو حوض الكوثر، أو نقول ماء في دار الآخرة، أمّا بشكل حوض أو نهر في القيامة أو الجنة، فإن شكله الحقيقي عند الله وهو ما لا نفهمه الآن بطبيعة الحال، وهذا المعنى ما استفاضت به الروايات وأشهر حديث روي في ذلك هو (علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)، وهو حوض الكوثر لا غير[1]، فهو لا يرى أيَّ تناف بين هذه المعاني الثلاث، لكن مع ذلك يذهب إلى أنّ معنى الكوثر هو ذرية الرسول الكريم ﷺ ويدعم ذلك أيضًا النقل التاريخي ، بأن السورة نزلت فيمن عاب الرسول الأكرم ﷺ بالبتر بعدما مات ابناه القاسم وعبد الله[2]. بالإضافة إلى ذلك المعنى اللغوي (للأبتر)الذي يستعمل في قطع الذنب ثمَّ أجري قطع العقب مجراه، فقيل فلان أبتر إذا لم يكن له عقب يخلفه[3].

وشارك الصدرُ في ذلك الرأي السيدَ الخوئي في كتابهِ البيان في تفسير القرآن، إذ قال : "إنّ الكوثر هو الخير الكثير من جميع الجهات، أمّا في الدنيا فشرف الرسالة وهداية الحق وزعامة المسلمين وكثرة الأنصار، والنصر على الأعداء وكثرة الذرية من بضعته الصديقة الطاهرة التي توجب بقاء اسمه ما دامت لدينا باقية، وأمّا في الآخرة فالشفاعة الكبرى والجنان العالية والحوض الذي لا يشرب منه إلّا هو و أولياؤه إلى ما سوى ذلك من نعم الله عليه، في المقابل لا يبقى لشانئه اسم ولا رسم فكانت العاقبة لهؤلاء الشانئين ما أخبر الله عنهم فلم يبق لهم اسم ولا ذكر خير في الدنيا، زيادة على جزائهم في الآخرة من العذاب الأليم والخزي الدائم"[4]. وممن تأثر بهذا المعنى من المفسرين المعاصرين صاحب تفسير (السراج المنير في بيان نكات التفسير) إذ قال : "ولا يخفى على أحد أنّ هذه السورة موارد الإخبار بالغيب، وهو ما يعبّر عنه بملاحم القرآن الكريم، لأنَّ هذه البشارة جاءت في مكّة المكرمة والرسول ﷺ قليل العدد والعدَّة، وكان شانئه صاحب شأن وجاه ، والواقع الخارجي شاهد على صدقِ هذه النبوءة القرآنية، فلم يُحفظ نسل أحد في التاريخ كما حفظ نسل النبي

1- ينظر: تفسير منّة المنان :1\116.
2- المصدر نفسه:1\116.
3- ينظر: المصدر نفسه:1\117.
4- البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، دار انوار الهدى، ط8، 1401هـ 1981م:ص99.

الأكرم من خلال ابنته فاطمة الزهراء"[1]. وهذا يحيل على ما ذكره الصادقي في تفسيره إذ قال: "أنّه امتداد نسل رسول الله من فاطمة الصدّيقة حيث انتشروا أكثر من كلِّ الأنسال"[2]. وينفرد في معنى آخر في دلالة (الكوثر) إذ يقول: "من مصاديق معنى الكوثر أنّه خديجة الكبرى فإنّها كوثرة في إيمانها ومالها وإنجابها الكوثرة الزهراء، فهي أحبّت محمّدًا في إرادة التعبير فانساقت إليه انسياقية إيمانية، فتضاءلت بين يدي حبها مجاهيد دنياها وذاب من تحت عيناها بريق الذهب وتاجرت بالرسول، وبثروتها الثرّ، قرنًا أنيسًا برسالة السماء، وجاهدت في هذا السبيل بكلِّ ما لديها من طاقات"[3].

ولا يخرج من جو هذه المعاني السيد علي السستاني (دام ظله) في مقالٍ لي معهم؛ مؤكدًا فيه أنَّ المراد من الكوثر هو كثرة الذُريّة من فاطمة (عليها السلام) بدليل قول النبي لخديجة قبل ولادة فاطمة الزهراء: هذا جبرَئيلُ يُبَشرنِي أنّها أُنثى أَنّها النسلةُ الطاهرةُ، الميمونةُ ، وأنَّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه.

ولعلَّ الصورة المستحضرة من القراءات التي ذكرناها للمفسرين المحدثين في توظيفهم للموجّهات الخارجية تتيح لنا القول: إنَّ المسارات السابقة التي جرت عليها طرق المتقدّمين في تلقّي النّصّ القرآني ظلّت فاعلة عند المفسرين المعاصرين في مجال تثبيت المعنى المستخلص بوجود الموجّهات الخارجية، وتوسيعه من خلال بعض مثيراته العقدية عند الطباطبائي وابن عاشور وامتداداتهما خصوصًا، ومن خلال التراكم المعرفي الذي عرفته حركة التفسير خلال القرون السابقة.

في حين ظلّت هذه الموجّهات تتأرجح في توجيه الدلالة المرادة في قراءة محمّد عبده التي راهنت على النّصّ وانفتحت على نسيجه اللغوي في تحصيل المعنى المراد.

1- السراج المنير في بيان نكات التفسير، الشيخ حبيب الكاظمي، دار نور المعارف للثقافة والتطوير، ط1، مصر،1436هـ-2015م:30\387.

2- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، الدكتور محمد الصادقي، دار الأميرة، دط ، دت:30\592.

3- المصدر السابق: 30\597.

المبحث الثـاني... الموجّهات الداخلية عند المحدثين

أولًا : المستوى الصوتي موجّهًا داخليًا عند المحدثين:

اهتمّ العرب بالنظام الصوتي اهتمامًا خاصًا، والأدلّ على ذلك "الاحتفاء بالجوانب المساعدة على التّلقّي الأمثل للقرآن الكريم، فقد اشترطوا في قارئ القرآن أن يكون متقنًا لأحكام القراءة الصحيحة وضوابطها"[1]. وكانَ اهتمامهم من خلالِ تحديدهم لمخارج الأصوات وصفاتها معتمدين في ذلك على الحسِّ المرهف والملاحظة الذاتية، في حين في الوقت الحاضر يعتمد هذا التحديد –اليوم- على التجربة والاختيار، فإنّها تمكن من إعطاء نتائج دقيقة وذلك لاستعانتها بالآلات والأجهزة الحديثة. فالصوت عند المحدثين "عبارة عن ذبذبات صوتية ناتجة عن عرقلة مجرى الهواء القادم من الرئتين، فعندما يصدر الجهاز العصبي أوامره بنطق صوت معين فإنَّ هذا الصوت ينتقل على هيئة نبضات كهربية تنقلها أعصاب متخصصة إلى أعضاء النطق وتتأهب هذه تبعًا لذلك لاتخاذ أوضاع معينة"[2]. تُحدد الدراسات الصوتية العربية الحديثة عشرة مخارج تصدرُ منها فونيمات اللغة العربية وهذه المخارج تتوزع على سورة الكوثر وآياتها بنسب مختلفة[3]. وقد تبيّن أنَّ أكثرَ المخارج حضورًا في السورة المباركة هما المخرجان الشفوي والحنجري إذ تكرر الأوّل خمس مرات وتكرر الثاني لست مرات، وهما الأكثر حضورًا في السورة بعد المخرج اللثوي حيث يحتلان المرتبتين الثانية والثالثة بنسبة 12.5% للمخرج الحنجري و15%

1-علم الأصوات وتكامل المعارف، مجموعة مؤلفين، عالم الكتب الحديث، دار اربد ،ط1، الاردن، 2018هـ 1439م: 2\357.

2- الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف استيتية ، دار وائل للنشر والتوزيع، ط1، الاردن،2003م: ص77.

3- ينظر:علم الأصوات وتكامل المعارف، مجموعة مؤلفين:2\182.

للمخرج الشفوي بالإضافة إلى ذلك إنّهما يظهران في آيات السورة الثلاث باستثناء الآية الثانية التي غاب فيها المخرج الحنجري[1].

إنَّ الهدف من ابراز مخارج الأصوات في السورة هو الكشف عن الاسلوب القرائي في نسيج اللغة الداخلي وما مدى تأثيره لدى المتلقي، وقد يتبين ذلك من خلال التضاد بين المخرج الشفوي والمخرج الحنجري ، والذي سيتم البحث في دلالتهما اعتمادًا على جهود المفسرين المحدثين (الشيخ محمّد عبده وابن عاشور والعلامة الطباطبائي)

إنَّ الآية : ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ بشارةٌ من الله –تعالى- لرسوله الكريم بهبة إلهية خصَّهُ بها دون سواه من الخلق والملائكة والأنبياء، وهذه الهبة هي الكوثر[2]. إنّ هذه الآية توضّح العلاقة بين عالم الغيب والشهادة من خلال المخرج الحنجري والشفوي، الأوّل متمثل في الذات الإلهية والثاني متمثل في النبي محمّد ﷺ، إذ تتجسد في نصّها (إنّا وكاف أعطيناك) "فهذه إذن هي علاقة وجود ما ورائي غير مرئي لا يدرك بالحواس ولا تدركه الأبصار، ووجود مرئي محسوس أنّها علاقة بين طرفي الوجود والغيب، كتموضع المخرج الحنجري والمخرج الشفوي في طرفي جهاز النطق، أحدهما في الطرف العميق غير المرئي الذي لا يبصر ولا يدرك بالحواس والآخر في الطرف البارز لعين الرائي المدرك بالحواس"[3]. إنَّ هذه العلاقة -بلا شكّ- غير متكافئة إذ يتفوق عالم الغيب على عالم الشهادة، لأنّ الله –تعالى- هو الواهب وهو المبشر العظيم، كما قال المفسرون في هذا المعنى: فالكوثر بشرى للرسول وتطييب لنفسه الشريفة[4]، كما إنّ المخرج الحنجري "هو الذي يهب الفونيمات الشفوية العربية شخصيتها الصوتية من خلال صفة الجهر التي تلازمها جميعًا"[5]، ولأنّ

1- ينظر: علم الأصوات وتكامل المعارف:2\183.
2- ينظر: تفسير جزء عمَّ، الأستاذ الإمام محمّد عبده :ص165. وتفسير الميزان ، العلامة الطباطبائي:429/20.
3- علم الأصوات وتكامل المعارف:185/2.
4- ينظر: تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي:428/20. وتفسير الحرير والتنوير،:572/30.
5- أطلس أصوات اللغة العربية، وفاء محمّد البيه، دار الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط1 مصر 1414هـ، 1994م: ص911.

الغيب في الآية الأولى (إنّا) جمعٌ دال على التعظيم[1] أخذ نسبة حضوره في الآية الأولى من سورة الكوثر مقابل (الكاف) في أعطيناك المتمثلة بعالم الشهادة والتي لا تتصدر الكلام، كقلة استعمال المخرج الشفوي وقلة حضوره.

إنَّ الآية الأولى من سورة الكوثر تحيل –إذن- على عالم الغيب المتواري عن الإدراك الحسي للبشر المتلقّين للوحي بالمخرج الحنجري المتواري عن نظر متلقّي الكلام[2] إضافة إلى ذلك تتحدث الآية عن بشارة من الله لرسوله الكريم، وهي(الكوثر) وهذه الهبة غيبية مختلف في تفسير المراد منها حتى بلغت الأقوال فيها أكثر من ستة وعشرين قولًا[3].

أمّا الآية الثانية ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر**﴾ فانسجمت فيها طبيعة حركة الشفتين صعودًا ونزولًا لكون هذه الآية تدل على عبادة بدنية تقوم على حركة الجسد، كما يشير صاحب الميزان بقوله: "ظاهر سياق الآية الثانية في تفريغ الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان ، فإنّه من شكر النعمة، والمعنى إذا مننا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر"[4]، وكذا قال محمّد عبده فيها: "فاجعل صلاتك لربّك وحده وانحر ذبيحتك مما هو نسكٌ لك للهِ وحده فإنّه مسبغ النعم عليك دون سواه"[5]. كما قال تعالى:﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[6].فإنّه أمره بالشكرِ بقدر ما أعطاه وبعد ذلك استأنف الكلمة لوصفِ حال أعدائه ومبغضيه[7]. لا يتوقف

1- ينظر: تفسير الميزان:429/20.وتفسير الحرير والتنوير:30\572.
2- ينظر: علم الأصوات وتكامل المعارف، مجموعة مؤلفين:2\186.
3- ينظر: تفسير الميزان ، العلامة الطباطبائي :20\428. وتفسير جزء عمَّ، الأستاذ الإمام محمّد عبده:ص166.
4- تفسير الميزان ، العلامة الطباطبائي:20\429.
5- تفسير جزء عمَّ ، محمّد عبده : ص167.
6- سورة الأنعام :162.
7- وقد نقل محمّد جمال القاسمي صاحب محاسن التأويل رأي محمّد عبده في هذه الآية كما هو إذ قال: فاجعل صلاتك لربّك وحدة وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده فإنّه مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط1، مصر، 1376هـ 1957م :9\555.

الدور التوجيهي للبنية الصوتية إلى طريقة أداء العبادة، بل يتعداها إلى وجه آخر، هو وظيفتها والغاية منها، لذا أمر الله –تعالى- الرسول الكريم بالصلاة والنحر، كما قال الأستاذ الإمام محمّد عبده: "أفضل الشكر الإخلاص لله في العبادة ، ثمَّ بذل المال للمساكين والفقراء"[1]، وإظهار هذهِ العبادة جهارًا لمواجهة نمط صلاة المشركين ونحرهم، "إذ كان المشركون يصلّون وينحرون، لكنّها كانت موجهة للأوثان لا إلى الله -عز وجل- فأمر الله نبيّه ﷺ بإظهار طريقة صلاته الخاشعة لمواجهة صلاتهم التي كانوا فيها يستهزئون ويصفقون ويصفرون"[2]،وأنْ يظهر نحرهُ وصلاته الخالصة لله –تعالى- لمواجهة نحرهم وصلاتهم التي ما كانت إلّا مفاخرةً ورياء.

وذلك كلّه يبين الإظهار والبروز في بعض المخارج كالمخرج الشفوي وغياب بعض المخارج كالمخرج الحنجري، فبرغم العبادة صلة بين العبد وربّه، وهو ما يناسب حضور المخرج الحنجري الخفي الغائب إلّا أنّ الغاية في هذه الآية مختلفة فالصلاة هنا مأمور بها لمواجهة صلاة المشركين ولا يتم ذلك إلّا بإظهارها وأدائها جهارًا أمام أعينهم وهو ما يوضح توظيف هذه المخارج لهذه الآية[3].

ونلخّص ذلك كلّه فيما رآه المفسرون المحدثون بأنّ ظاهر السياق في هذه الآية هو الأمر بالصلاة، والنحر على الامتنان ، ومعنى ذلك إننا إذا منّنا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر فضلًا عن طاعة الله بالنية الصادقة كما قيل في قراءة الآية الثانية من السورة: انحر ذبيحتك مما هو نسكٌ لله فهو مربيك ومسبغ النعم عليك دون سواه[4]. وقد تبين فيما سلف إنّ مخارج الأصوات الشفوية الظاهرة ملائمة لمضمون الآية لأنّ السياق يتطلب ذلك لمجاهرة المشركين في أعمالهم وصلاتهم المكاء.

أمّا الآية الثالثة﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ فتعرض إحدى المحن التي ابتلي فيها النبي محمّد ﷺ من المشركين والمستهزئين –آنذاك- إذ انتقصوا من نفسهِ الزكية وقيمتهِ بين الناس، فهم

1- تفسير جزء عمَّ: ص167.
2- التحرير والتنوير: 30\575.
3- علم الاصوات وتكامل المعارف:2\188.
4- تفسير جزء عمّ:ص167.

يرون أنّه أبتر، وعن ابن أبي حاتم السّدي كانت قريش تقول: إذا مات أبناء الرجل الذكور بتر فلان فلما مات أبناء الرسول الكريم قال العاص بتر محمّد ﷺ[1].ومن الناحية الصوتية فإنّ بلوغ نسبة المخارج فيها وصلت أعلى درجة في السورة وخاصة المخرجين الحنجري والشفوي إذ أسهم عدد كبير من أصواتها في التوجيه القرائي مقارنة مع الآيتين السابقتين، فهي تشير إلى التفاعل بين عالم الغيب والشهادة، فالقول بأن الرسول الكريم أبتر تدخّل بشري في عالم الغيب، وهذا الوصف اللئيم بحق الرسول دافع عنه الله –تعالى- بنفسه كما تبين آنفًا في سبب نزول السورة[2].إنّ بلوغ نسبة المخرج الخفي الحنجري العالية في هذه الآية دليل على تدخّل مباشر من عالم الغيب في عالم الشهادة، وهذا التدخل الخفي لا تدرك آثاره بمستقبل قريب في حياة النبي، وإنّما يُشاهد بمستقبل بعيد، وهو الذي تحقق بمصيرِ شانئه الذي انتهى به المطاف أبتر بموتهِ مشركًا لا أثر له ولا يحسن من بعد ذكره[3]. وقد كان هنالك تقارب في المخارج الصوتية في السورة تبعًا للسياق القرآني ففي الآية الأولى كانت نسبة حضور المخرج الحنجري الخفي واضحة مقارنة بالمخارج الأخرى تبعًا لاختلاف المفسرين في معنى(الكوثر) وكيفية تلقيها كلٌّ منهم حسب عقيدته ومنهجه الذي سار عليه، أمّا في الآية الثانية فتبين لدى القارئ حضور المخرج الشفوي بصورة واضحة حين دلّ على العبادات التي كان يقوم بها الرسول الكريم -آنذاك- من الصلاة والنحر، أمّا الآية الأخيرة فقد تقاربت المخارج الصوتية تبعًا لتأثير عالم الغيب في عالم الشهادة تأثيرًا مرئيًا ملموسًا بتحقيق وعد الله –تعالى-، إذ أصبح الشانئ لا أثر له ولا نسب، بخلاف الرسول ﷺ الذي امْتدّت ذريته إلى يومنا هذا، وظلَّ ذكره مرفوعًا على المنابر والمنائر وعلى لسان كلّ إنسان إلى آخر الدهر.

1- ينظر: الميزان في تفسير القرآن:431/20. وتفسير التحرير والتنوير: 577/30.
2- تفسير جزء عمّ: ص165. والميزان في تفسير القرآن:20\428.
3- ينظر: التكامل المعرفي بين علم الأصوات وعلم البلاغة، مجموعة مؤلفين:2\190. والميزان في تفسير القرآن :20\431. وتفسير جزء عمّ :ص168.

ثانيًا: المستوى الصرفي موجّهًا داخليًا عند المحدثين:

يعدّ المستوى الصرفي ميزان اللغة العربية وقوامِ ألفاظها، وبهِ تعرف أصول كلام العرب من زوائده الدخيلة، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلّا بهِ[1] لذا يعنى الدرس الصرفي الحديث بالبنية التي تمثلها الصّيغ والعناصر الصوتية التي تؤدي معانيًا صرفية، "وتأتي دراسة الصرف على هذا النحو ضمن تسلسل العناصر اللغوية التي انتهجته اللسانيات الحديثة وهو يبدأ من الأصوات إلى البنية فالتركيب النحوي ثمَّ الدلالة التي تمثل قمة هذه العناصر وثمرتها، إلّا أنّ علم الصرف من أجلّ العلوم وأعظمها لما له من أهمية بالغة وفضل كبير، لذلك نال هذا العلم اهتمام العلماء لاسيما القدماء"[2]، ولقد كان لهذا العلم نصيبٌ جلي في التوجيه القرائي لسورة الكوثر، قال تعالى :﴿**إنّا أعطيناك الكوثر**﴾ قال في الميزان: الكوثر فوعل من الكثرة وهو الخير الكثير الذي من شأنه الكثرة[3]. فيتبَيَّن أن (الكوثر) إنّما تصدر عنه الكثرة والتعدد، "وهو وصف عام لم يحدّد فيه نوع الجنس أو ما يتجسد فيه الكوثر أو الكثرات بل أوكل تحديد نوّعها إلى خيال الإنسان ليذهب في تصوراته إلى أي مدى شاء"[4]، وقال تعالى ﴿**إنّا أعطيناك الكوثر**﴾ بعيدًا عن ذكر تبيانه، كأن يكون مقامًا أو علمًا أو أيّ شيء آخر، لأنّ الكوثر هو مصدر الكثرة وسبب في الامتداد والازدياد في أي نوع ارتبط فيه[5]. بل حتى في كتب التفسير حينما يُفسّر الكوثر ببعض المعاني، يقال: الكوثر الخير الكثير، أو ذرية الرسول الكريم من فاطمة –عليها السلام- هذا الأمر يبيّن للقارئ إنّ معنى الكوثر يبقى بلا تحديد[6].

1- المنُصفُ –شرح أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التَّصريف للإمام أبي عثمان المازني البصري-، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق، إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط1، مصر، 1373هـ 1954م:2/1.

2- المستوى الصرفي في الدرس اللساني عند ابن جني، فاطمة دوحاجي وصفيّة بن عطّة ، مجلة نتائج الفكر الصادرة عن معهد الآداب واللغات ، المجلد السادس ، العدد الأول ،2022م:ص55.

3- ينظر: الميزان في تفسير القرآن،:428/20.

4- تفسير سورة الكوثر، السيد جعفر العاملي:ص38.

5- ينظر:المصدر السابق نفسه:ص38.

6- الميزان في تفسير القرآن:428/20. وتفسير جزء عمّ :ص165.

وفي قوله تعالى: في كلمة (انحر) فعل أصله (نَحَرَ) في صيغة أمر منسوب لضمير مذكّر مفرد على وزن (افعل)[1]، الذي تعني في سياقها القرآني النحر المرافق للصلاة انتصب وأخرج صدره، كما قال محمّد عبده في هذا السياق اجعل صلاتك لربّك وحده[2] ومثله قال الطباطبائي: ظاهر السياق هو رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر[3].

وفي الآية الأخيرة، قال تعالى : (شانئك) هو مبغضك، على وزن فاعل، واسم الفاعل يدل على الحدث والحدوث ويمتاز عن غيره من المشتقات بدلالتهِ على من قام بالفعل على وجه الاستمرار والتجدد[4]، وفي لسان العرب (شنأ) أشد البغض والشناعة[5].وهكذا تلقّى المفسرون معنى المفردة الشانئ هو المبغض[6]. أمّا الكلمة الأخيرة في السورة (الأبتر) التي تعني البور من الناس، الفاسد الهالك المنقطع عن الخير[7]. صيغة مبالغة على وزن (افعل-فعلاء)، وهذا الذي توحي به مفردة الأبتر في السورة؛ فهي تثبت صفة البتر لمبغض الرسول وفي الحال نفسه نفتها عنه، كما تلقاّها محمّد عبده "الأبتر هو المقطوع الذي لا يبقى أثره ولا يحسن من بعده ذكره، وشبّه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب الحيوان وشبّه الحرمان من ذلك ببتر الذنب وقطعه، لأنَّ البتر شاع في هذا المعنى وإن كان أصله القطع مطلقًا، وشانئه ﷺ لم يكن لشخصه لأنّ شخصه كان محببًا إلى النفوس كما يدلُّ عليه تاريخه، أنّما كان الشانئون يمقتون ما جاء به من الهدى فهؤلاء هم الغارقون في الضلال، الخابطون في ظلام الجهل، فلا ريب في فساد أمرهم وانقطاع أثرهم، وقد حقق الله هذا الوعيد في شانئيه في زمنه ﷺ من المشركين، فقد جرهم الخذلان إلى غاية الخسران ولم يبق لهم إلّا سوء الذكر لبعضهم والنسيان التام لبقيتهم بخلاف الرسول الكريم ومن

1- تاج العروس:14\184.
2- تفسير جزء عمَّ :ص167.
3- الميزان في تفسير القرآن:20\429.
4- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ط1، القاهرة، 2011م:ص30.
5- لسان العرب ،: مادة (شنأ).
6- الميزان في تفسير القرآن:20\429. تفسير جزء عمَّ:ص168. وتفسير التحرير والتنوير،: 576/30.
7- ينظر : لسان العرب، مادة (بتر).

اهتدى بهدايته فإنّ ذكرهم لا يزال رفيعًا وأثرهم لا يزال باقيًا في نفوس الصالحين"[1]، وأتمّ حديثه عن الأبتر وممن ألصق به هذا الوصف فقال: "وممن يشنأ ما جاء به الرسول الكريم ويدخل في ما يضمه معنى الأبتر أولئك الذين يتركون كتاب الله الذي جاء به، ويتمسكون بظنون أقوال غير المعصومين بدون النظر الى ما تجر إليه من الانحرافِ عن سبيلِ جملة الدين القويم، ويجعلون الدين شيعًا وفرقًا بعد أن صرح الكتاب بقوله:﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[2] ثم يعملون على ترويج ما ألصقوا أو الصق أسلافهم بالدين من البدع وبيع العبادات واتخاذ الوسائط والشفعاء مما رمى بهم إلى ما وراء الصراط المستقيم، فإذا ذكّروا بالقرآن أو دعوا إليه لووا رؤوسهم وذكروا لك من قول القائلين ما يصدمون به كتاب الله ويظنون أنّهم به يؤمنون فلا عجب أنْ ترى الغضب الالهي يتبعهم في كلِّ مكان ويقذفهم من ذلةِ الى مسكنة ومن متلفة الى مهلكة وهم لا يشعرون بل ينظرون إلى ما يحل بهم وهم ضاحكون"[3].

ثالثًا: المستوى التركيبي موجّهًا داخليًا عند المحدثين:

نوهنا فيما سبق إلى قيمة المستوى التركيبي كواحد من أهم المستويات اللغوية التي وقف عندها اللغويون من أجلِ توضيح القواعد التي تحكم إنتاج الجمل والنصوص، فهو من أنسب المستويات اللغوية التي تسمح للمرسل بتوظيفه لإبراز استراتيجية الخطاب والقراءة[4]، إذ يشير أحد الباحثين إلى ملاحظة هامة لا بدَّ من الالتزامِ بها هي "ضرورة مراعاة السياق العام للنصِّ وذلك أنّ القراءة النحوية التركيبية قد لا تكفي لبلوغ الغايات التي كان منشئ النصّ يودّ بلوغها، وذلك بسبب الاشكالية التي واجهت بعض القراءات اللغوية للنّصوص، وهي أنّ كثير من القرّاء اعتمدوا فقط على القوانين التي اكتشفها علماء اللغة للتراكيب اللغوية للنصِّ، وقد حاولوا استقصاء كل الاحتمالات اللغوية الممكنة، ومن ثمّ

1- تفسير جزء عمَّ:ص168.
2 - سورة الأنعام:159.
3- المصدر نفسه:ص168.
4- ينظر: استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، ليبيا ، 1424هـ 2004م:ص71.

يؤدّي عملهم هذا إلى نتائج غير مرضية في كثير من الاحيان، بل كثيرًا ما جنح اتّساع الاحتمالات إلى نتائج غريبة غير مرضية، لأنّه نتاج قراءات ميكانيكية جافة"[1]. ومعنى ما سلف هو أنّه يجب أن تتظافر مجموعة من القراءات والمستويات للوصول إلى نتائج مرضية عند مستقبل النصّ.

وكان للمستوى التركيبي دور بارزٌ في التوجيه القرائي لسورة الكوثر، فقد افتتح الحديث بالسورة بحرف التوكيد "للاهتمام بالخبر والاشعار بأنّه شيءٌ عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن الرسول الأكرم"[2]، وفي الآية الأولى بُني الفعل على المبتدأ فقدّم الملقي عنه تأكيدًا لإثبات الخبر[3]. وتوضيح ذلك :أنّ الله -عز وجل- قدّم المبتدأ وهو الفاعل من حيث المعنى على الفعل، والأصل أن يتقدّم الفعل على الفاعل، وإذا تغيّر هذا الترتيب لابدّ من وجود غرض بياني وقصد بلاغي لهذا التغيير، فالقياس في (أعطيناك الكوثر) هو (أعطينا نحن أنت الكوثر) وكانت الفائدة من التقديم هي الدلالة على الاختصاص. وقد استفاضت الروايات في معنى العطاء، والذي ذكر فيه المفسرون أكثر من ستة وعشرين رأيًا كان أبرزها هو الخير الكثير وإنّه امتداد نسل رسول الله من فاطمة...[4] والجملة المفيدة للاختصاص قد أكَّدت هذا العطاء؛ لأنّ الاختصاص يقع في الاثبات والنفي وفي هذه الآية أثبت العطاء الالهي من عنده هو فقط. وقد شملت سورة الكوثر كما لا يخفى على أحد نوعين من الجمل هي الإسمية والفعلية، وهذه قسمة ثنائية عند الجمهور، فالجمل عندهم إمّا إسمية أو فعلية.

إنَّ الجملة الفعلية تدلّ على التجدد أو الحدوث بزمن معين كما دلت الآية الأولى من السورة في قراءة المفسرين؛ إذ قال صاحب الميزان فيها : وقد اختلفت اراء المفسرين في معنى الكوثر اختلافًا عجيبًا ، وقد ذكر عدة أقوال في مصاديق معنى الكوثر إلّا أنَّه في

1- قراءة النص مقدّمة تاريخية، عبد الرحيم الكردي، دار مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 1429هـ 2008م:ص28.
2- التحرير والتنوير::572/30.
3- ينظر: الميزان في تفسير القرآن:428/20.
4- ينظر: الميزان في تفسير القرآن:428/20. وتفسير جزء عمّ :ص165.

النهاية رجّح بأنّ معناه هو امتداد نسل رسول الله، إذ قال: "الجملة لا تخلو من أنَّ دلالة الكوثر تعني ذريّة الرسول من ابنتهِ فاطمة -عليها السلام- فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أيّ نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعة"[1]، فذرية الرسول تتجدد كما لو أن الجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد. أمّا قوله تعالى في الآية الثانية فهو جملة فعلية تدل على التجدد، وكما قال فيها محمّد عبده : "اجعل صلاتك لربّك وحده، وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله"[2]، وهو قال اجعل صلاتك لله وحده، لأنّ مشركي قريش كانت صلاتهم ونسكهم لغير الله. وقال الطباطبائي فيها: "صلِّ لربك واستو قائمًا عند رفع رأسك من الركوع، وقال في النحر هو رفع اليدين في تكبير الصلاة الى النحر"[3]، ومعنى ذلك الالتزام بواجباتك والابتعاد عن ما هو لغير الله. أمّا الآية الأخيرة فهي جملة إسمية ، والجملة الإسمية تدلُّ على الثبوت والاستمرارية، كما ثبت أنّ عدو رسول الله هو الأبتر كما قال محمّد عبده: "الشانئ معناه المبغض والأبتر هو المقطوع الذي لا يبقى أثره ولا يحسن من بعده ذكره"[4]، هذا وقد ذكر أنّ الشانئين هم الغارقون في ظلام الجهل، فلا خوف في فساد أمرهم وانقطاع أثرهم. كما رأى الطباطبائي في ذلك إنّ الأبتر من لا عقبَ له، وهو المنقطع عن كلِّ خير[5]. وهذا الرأي امتدَّ إلى المفسرين اللاحقين حيث قال الصادقي فيه: "إنّ الأبتر بخلاف الكوثر؛ فشانئ الرسول منقطع عن خيرات الدنيا والآخرة بينما امتدَّ ذكر الرسول الكريم وعلا"[6]. كما قال صاحب تفسير السراج المنير في هذه الآية: "إنَّ التهديد ببتر الشانئ وكأنّه هو الوحيد الذي لا عَقبَ له باستعمال ضمير الفصل الدال على التأكيد أو الاختصاص، وهو لا يختص بشانئ معين فإنَّ مورد النزول لا يُخصص الوارد فقط، بل كلِّ مبغض للرسول مصيره إلى البتر والانقطاع في كلِّ العصور، وخاصة أنّه وقع التعبير باسم الفاعل لا الفعل؛ والدال على ثبوت الجزاء

1- الميزان في تفسير القرآن:20\429.
2- تفسير جزء عمّ:ص168.
3- المصدر نفسه :ص168. والميزان في تفسير القرآن :20\429.
4- تفسير جزء عمَّ:ص168.
5- الميزان في تفسير القرآن:20\429.
6- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن:30\601.

لصاحب تلك الصفة في كلِّ الأحوال"[1]. ومما تقدّم أتَّضح أن السورة المباركة شملت نوعين من الجمل، هما الجملة الفعلية التي تدلل على التجدد أو الحدوث، وهذا ما ينسجم مع بداية السورة بقراءة المفسرين، والجملة الإسمية التي تدلّ على الثبوت والاستمرارية كما بيّنا آنفًا في ختام السورة المباركة، بأنّ شانئ الرسول هو المنقطع عن كلِّ خير ما بقي الدهر.

رابعًا: المستوى الدلالي موجّهًا داخليًا عند المحدثين:

يهتمّ المستوى الدلالي في معاني الكلمات المفردة ومعاني الكلمات داخل السياق في النصّ، ويهتم في المعنى الموجود في الرمز أو الصورة ويهتم أيضًا في التطور الدلالي والترادف والأضداد والمشترك اللفظي على غرار المعنى اللغوي[2]. وفي القرآن الكريم "جاء اختيار الألفاظ في دلالتها متناسقًا مع مقتضيات الحال وطبيعة المناسبة وقد يكون ذلك التناسق صادرًا لجهات متعدّدة تؤخذ بعين الاعتبار لدى تجديد القرآن لمراد الاستعمال في الحالات الوصفية والتشبيهية والتقديرية"[3].

وفي ما يخصّ السورة المباركة، إذ كانَ الغرض الأساس من نزولِها هو تطييب لنفسهِ الشريفة بإعطائه الكوثر، وكذلك لتوضّح بأنَّ شانئه هو الأبتر[4]. وفي قوله تعالى: **(إنّا أعطيناك)** "جيء بلفظ المتكلم مع الآخر الدال على العظمة، ولما فيه من تطييب نفسه أكَّدت الجملة (بأنّ) وعبّر بلفظ الإعطاء الظاهر في التمليك"[5]، وقد عبّرَ القرآن في هذه الآية بلفظ الإعطاء تحديدًا بدل من لفظ آخر كالإتيان مثلًا "لأنّ إطار خصوص الإعطاء تمليك إرادي ولا يكون إلّا في الخير، لذا لم يرد الأمر به في القرآن ولم يكن محلّا للبلوى، وأمّا الإتيان إطار عموم يكون تمليكًا وغير تمليك ويستخدم مع رضا النفس وسخطها كما

1- السراج المنير، حبيب الكاظمي:30\395.
2- علم الدلالة، أحمد مختار عمر :ص14.
3- تطور البحث الدلالي، الدكتور محمّد حسين الصغير، دار المؤرّخ العربي ،ط1، بيروت ، 1420هـ 1999م: ص49.
4- ينظر: الميزان في تفسير القرآن:20\428.
5- المصدر نفسه:20\429.

يستخدم مع الخير والشر، وفي هذه الآية كان الإعطاء ابتداء فضل من الخالق إلى المخلوقين مما يفصح عن رضا الخالق في الإعطاء على المعطي له"[1].

والباحث في السورة يرى إنّها بدأت بهبة مانحة الرسول الكريم عطاء عظيما ما كان لأحدٍ سواه، وبالخطاب المباشر له ﷺ دلالةٌ على التشريف والتكريم، وقد أكّدَ ذلك بضمير العظمة في بداية السورة[2]. وهنا يرد سؤال هو كيف قال(أعطيناك) في الماضي ولم يقل سنعطيك أو سيكون لك الكوثر؟ فالله تعالى أخبر عن أمر قد تحقق ومضى، معَ انّ القضية حصلت بعد موت أبناء الرسول الكريم بمعنى التعويض للأولاد، فكيف قال أعطيناك في الماضي ثمَّ يطلب من الرسول أن يشكره؟ وقد أجاب على ذلك السيد مرتضى العاملي إذ قال: "السورة جاءت كلها لتخبر عن وعد إلهي، و أمر غيبي بصورة جازمة مؤكدة، فكلمة (إنّ) قد جيء بها لإفادة هذا التأكيد، ثمَّ ترقّى في تأكيده هذا إلى درجة اعتبر فيها أنّ هذا الأمر قد تحقق بالفعل وأصبح واقعًا، وصار من الماضي الذي يصح الإخبار عنه، لأنّه قد تجاوز الموانع واستجمع المقتضيات، والشرائط المعتبرة في تحقق الوجود رغم موت أولاده الذكور، والذي يزيد هذا التأكيد قوّة وشدة هذا الإلماح إلى اظهار مقام العزة والعظمة الإلهية، الأمر الذي يقتضي أنْ لا يخلف الله وعده"[3]، أمّا الهبة المانحة لا حصرَ ولا تحديد فيها، إنّما يصدر عنها التعدد و الكثرات كما قال المفسرون: "الكوثر الشيء الذي من شأنه الكثرة والكوثر الخير الكثير"[4] وبتعبير أوضح أنّ المفسرين اختلفوا في قراءة الكوثر فقالوا في جملته أنّه الخير الكثير أو كثرة ذرية الرسول من فاطمة –عليها السلام- وطبيعة هذا الأمر يبقى بلا تحديد، "فالله تعالى يريد أن لا يحدّ من خيال الانسان في تصوراته، وأن لا يحدّه في تصور مواصفات الخير والنعمة والتفضل فيه، وهذا غاية المبالغة في اظهار عظمة هذه النعمة وأهميتها واستجماعها لحقيقة الخير ولمواصفاته بصورة لا يحدّها خيال

1- البنى التصورية واللسانيات المعرفية في القرآن الكريم ، بوشعيب راغين، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن، 1432هـ 2011م: ص213.
2- ينظر: سورة الكوثر دراسة بيانية ، دكتور عبده محمّد الحكيمي: ص119.
3- تفسير سورة الكوثر ، السيد مرتضى العاملي:33-34.
4- الميزان في تفسير القرآن:429/20. وتفسير التحرير والتنوير:572/30.

ولا يقف في وجهها تصوّر"[1]. في حين قال الدكتور محمود البستاني في تفسيره (التفسير البنائي للقرآن الكريم) عندما استنتج في تفسيره أنّ هنالك صلة بين بداية السورة التي تقول بأن الله وهب النبي محمد ﷺ (الكوثر) ونهاية السورة التي تقول بأنَّ شانئ النبي ﷺ أبتر، وعلى ضوء ذلك فسَّر الكوثر بأنَّه نسل رسول الله، ويضيف قائلًا: "لا شكَّ أنَّ تفسير الكوثر بفاطمة بنت رسول الله من حيث كونها التجسيد للذرية والنسل، يظل هو الدلالة الأوثق لصوقًا بطبيعة المبنى الهندسي للنص"[2]. هذه هي غاية المبالغة في إظهار عظمة هذه النعم وأهميتها، وتبيانها بصورة لا يحدّها خيال، ولا يقف عندها تصور

وقوله تعالى (فصلّ لربّك وانحر) ردًا على المشركين الذين كانوا يعبدون غير الله[3] وكذلك تبيان عنصر الازدياد والشكر لهذه النعمة الذي يكون بواسطة الاستمرار في الجهد والعمل. والسؤال هنا هو لماذا قال (فصلِّ لربّك) ولم يقل أُعبد الله؟ وجواب ذلك هو أن الصلاة تستبطن العبادة وتستبطن الشكر، فإذا كان المقام مقام إعطاء لمصدر الكثرات لكلِّ ما هو من سنخ الخير والخيرات مما ينسجم مع أهداف الرسول الكريم التي هي أسمى من الحياة الدنيا فإن المناسب أن يكون الشكر شاملًا لجميع مظاهره في القلب واللسان والجوارح، فالمناسب في مثل هذا المقام هو التعبير بـ(صلِّ) لأنّه مسارها الطبيعي هو قضاء حق الألوهية، وذلك بالتوجّه بالعبادة له –تعالى- ثمّ قضاء حق الربوبية لأنّها العبادة الشاكرة[4]. وفي الشق الثاني من السؤال، لماذا قال لربّك ولم يقل لله تعالى؟ وذلك لعلَّ الربوبية تعني استمرار الرعاية الالهية وتعاهد المخلوقين وحفظهم وتدبّر أمرهم من موقع الحكمة والعلم والمحبة، ثمَّ جاء بكاف الخطاب المفرد، ولم يقل لربِّكم، لأنَّ الأمر يرتبط بشخص هذا الإنسان بما له من فردية وتعيّن تتجسد فيه المحبة والارتباط الحقيقي المباشر وكذلك ليؤكد على لزوم الإخلاص في الصلاة وخلوصها من أي نوع من أنواع الشرك

1- تفسير سورة الكوثر ، السيد مرتضى العاملي:ص39.
2- التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية ، ط1، مشهد، 2001م: 435/5.
3- ينظر: الميزان في تفسير القرآن :429/20. وتفسير جزء عمَّ: ص168.
4- ينظر: تفسير سورة الكوثر :ص59.

مهما كان خفيًّا [1] ثمَّ أتمَّ تعالى الآية بالنحر الذي اختلف المفسرون بدلالته فقيل نحر البدن كما قال الأستاذ محمّد عبده: "انحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده فإنّه مربيك ومسبغ النعم عليك"[2]، وعن ابن عباس قال أنّ الله أوحى إلى رسوله أن أرفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر"[3] وهذا هو التعبير الصريح والصادق عنه، الذي تضمن الالتفات إلى مقام الالوهية.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾** قد يقال إنّ الشانئ هو مجرد حاقد ومبغض، فلماذا حاسب الله على أمر قلبي غير ملموس، حتى وأن قالوا لا عقبَ لهُ، يبقى استنقاصًا كسائر استنقاصاتهم منّه، وكان يتجاوز ذلك، فما الذي جعلَ الأمر خطرًا وعظيمًا حيث يستوجب نزول سورة كاملة من أجله؟ يمكن أن يقال في الجواب أمران" الأول من الناحية الشخصية حيث يتأذى الرسول الكريم نفسيًا من تعبيرهم لهُ بهذا الأمر، وقد تأخذه الحسرة لانقطاع نسله، والآخر إنّ هذا الأذى الذي يلحق بالدين والرسالة هو الذي يستحق نزول هذه السورة، وهذا العطاء، وهذا الموقف الحازم من الشانئ، فمن الواضح أنّ الرسول لا يهتم لأمر الذرية من حيث هي ذريّة، وإنّما هي حصانة للشريعة وللرسالة وامتدادها"[4]، لأنّهم كانوا يرددون: لن يكون لهذا الرسول امتداد، ولن يحمل رسالته أحد من بعده، فعن ابن عباس في الميزان قال: لمّا مات أبناء الرسول الكريم قال العاص بن وائل: قد انقطع نسله

1- تفسير سورة الكوثر:ص68.

2- تفسير جزء عمَّ :ص167. وقد نقل ذلك الدكتور وهبة الزحيلي إذ قال :**﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾** أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك نهر الكوثر، فداوم على صلاتك المفروضة والناقلة ، وأدّها خالصة لوجه ربّك وانحر ذبيحتك وأضحيتك وما هو نسك لك لله وهو الهدي (شاة أو بعير مقدّم للحرم)، وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لا شريك له، فإنّه هو الذي تعهدك بالتربية وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما جاء في آية اخرى آمرا له ، قل :**﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وهذا نقيض فعل المشركين الذين كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له ، وهو أيضًا نقيض فعل المنافقين المراءين. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة الزحيلي (ت2014م)، دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، 1418هـ 1998م:30\433.

3- الميزان في تفسير القرآن:20\430.

4- تفسير سورة الكوثر، السيد مرتضى العاملي ، ص88.

فهو أبتر فنزلت هذه السورة"[1]، فإنّ ما كان يسعى إليه المبغضون هو إفشال الرسالة بأيّ طريقة فكان الردّ الإلهي حاسمًا من ناحيتين: بإعطاء الكوثر للرسول وتطمين قلبه الشريف، والآخر انقطاع الخير على مبغضيه وتدمير مستقبل الشرك والعدوان. وإنّ دلالة كلمة (الشانئ) تشمل كلِّ مبغض للنبي ﷺ ولا يقتصر الأمر على شخص بعينه، كما هي نهاية الآية إذ قال تعالى في مبغضه أبتر ولم يقيدها بالخير الكثير أو الذرية، ولعلَّ ذلك من أجل العموم والشمولية ليشمل كلِّ شيء ولينقطع عن الامتداد في الدنيا والآخرة على حد سواء فهو لا يجد نتيجة لأفعاله الجوارحية، كما أنَّ نسله سيبتر أيضًا، وينقطع ذكره الحسن، لأنّ كل عمل يصاحب بغض الرسول الكريم لا امتداد لهُ ولا بقاء له؛ لأنّه يصبح من الباطل الذي يزهق ويزول مع الوقت.

مما تقدّم يتَّضح لنا تغليب المفسرين المحدثين المؤثرات الداخلية التي ينصب اهتمامها على جوهر النص؛ فهم يعتمدون سياق الآيات لتوضيح المعنى الكلي، مثلما قال محمّد حسين الطباطبائي الذي كان أكثر المفسرين اهتمامًا بالموجّهات الداخلية للنصّ في مقدّمة تفسيره أنّه يعتمد على مبدأ السياق للوصولِ إلى معاني الآيات، وما ذكر الشيخ محمد عبده أنّه يعتمد في تفسيره على آيات القرآن الكريم وعلى أساليب لغة العرب، خاصة أنّه كان يهدف إلى التجديد الكامل المتعلق بالحياة الدنيوية في الإسلام، ويبين أنّ الغرض الأساسي للقرآن هو هداية الناس، وابن عاشور الذي كان حاذقًا للمعارف اللغوية محيطًا بمسائل الاشتقاق والتركيب والنحت مولّعًا بالقضايا البلاغية، لذلك كان اهتمام المفسرين في المبحث الثاني في المستويات الأربع أشمل لأنَّه من خلالها يتَّضح السياق وتكشف كوامنه وأسراره وخاصة المستوى الدلالي الذي يبحث في معاني المفردات.

1- الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي:20\431.

نتـائـج البـحـث

نتائج البحث:

لقد خرجت هذه الدراسة بمجموعة من النتائج التي يمكن الاطمئنان إليها بعد عناء الخوض في فصولها ومباحثها، وكالآتي:

- شكّلت نصوص القرآن الكريم بما فيها نصوصه القصيرة جدا نحو(سورة الكوثر) مجالًا خصبًا للتفاعل مع القراءات المتعددة عبر الأزمنة المختلفة، لما يشتمل عليه هذا النص من قدرة على عدم النفاد، ومن طاقات تعبيرية ومضمونية متجددة على مرّ الأزمنة جسدتها متون التفاسير وحركتها التي لم تعرف التوقف والنضوب.
- إنّ توظيف المنهجيات والرؤى الحديثة لقراءة جهود أصحاب هذه المتون العديدة التي تعجّ بمظاهر نصيّة ومعطيات خطابيّة سيسهم في رصد تجليات القراءات المتعاقبة لإحدى سور القرآن (سورة الكوثر) التي كان اختيارها أنموذجًا للبحث بسبب ما تنطوي عليه مظاهرها النصيّة ومعطياتها الخطابية من مواقف اختلاف حدّدتها أنماط التلقي التي اتخذت ثلاثة مسارات تحكمت فيها موجهات حافة بالنص المذكور ومحيطة به إحاطة غير قابلة للعزل عن موجهات أخرى نابعة من نسيج النص الذي شكلته صياغته التعبيريّة الخاصة.
- ظلّت الموجهات الخارجية عند المفسرين القدماء تعمل على تعيين مراد النص من محتواه، إذ لا يُرتكن إلى معنى الآية من بنيتها اللغوية فحسب، وإنّما يستخلص المعنى من هذه البنية ومن محيطها الحاف بها ما أمكن ذلك، وهو ما أثبتناه من خلال نمط التلقي عند المفسرين القدامى وامتداداتهم عند أتباعهم من المفسرين الآخرين.
- لعلَّ هذا ما يدفع إلى القول: إنّ سنن التلقي في النماذج الأصول نابعة بدورها من ذاكرة تقليدية (جماعية) أسهم في صياغتها جيل التأسيس من الكلاميين الأوائل الذي انسربت أفكاره في وعي المفسرين، مما يؤكد ارتباط القراءة التفسيرية بنسق سابق يمارس نشاطه وحضوره وسلطته وتأثيره في اللاحقين.
- كانت هذه السنن مستجيبة لإملاءات التوجه المذهبي إلى درجة ما، فإذا كان الزمخشري يميل إلى أنَّ الكوثر (نهرٌ في الجنة)، فالفخر الرازي يرجّح دلالة اللفظة بـ(الخير

الكثير)، أما الطبرسي فقد ذهب إلى أنَّ معنى الكوثر هو ذرية الرسول من ابنته فاطمة -عليها السلام- فحسب.

- كانت الموجّهات الخارجية أقل تأثيرا في تسيير قراءة المفسرين المحدثين الذين أولوا معطيات نص (الكوثر) اللغوية أهمية تجلت بوضوح عند امتدادات هؤلاء المفسرين الذين أفادوا بدرجة أو بأخرى من علوم العصر ومن تطور مناهج العلوم الإنسانية التي ركّزت على النص أكثر من تركيزها على ما سواه.
- إنَّ تلقي (سورة الكوثر) ظلَّ خاضعًا إلى تجاذب الموجّهات الخارجية والداخلية، وكان للعصر الذي عاشه القارئ دور واضح في تغليب أحد الموجّهين على الآخر لا إلى درجة تصل إلى الاستغناء عن أحدهما سواء عند القدامى أم المحدثين، مما يؤكّد دور كلّ من الموجّهات الخارجية والداخلية في قراءة هذه السورة.
- إنّ كلّ قراءة من القراءات المتعدّدة تدخل في صياغتها مجموعة من الظروف المتعلّقة بالقارئ وثقافته وعصره الذي عاش فيه، وبسبب من ذلك تفاوتت القراءات في ما بينها.
- وإنّ القراءات المتعددة بموجّهاتها الخارجية والداخليّة هي قراءات تمخّضت عن نصٍّ ثري لا نهاية لدلالاته، وإنّ أية قراءة من هذه القراءات لا تلغي أختها ولا تقصيها عن مشهد التفسير والتأويل المزدهرين؛ لأن هذه القراءات تكمل بعضها الآخر، وصولا إلى قراءة كليّة تتكامل بمجموع الجهود التفسيريّة التي انبرت بالأمس، وستنبري اليوم وغدا إلى هذا النص الكريم والأخّاذ في بعديه الصياغي/ التشكيلي، والمضموني / الدلالي.

المصـادر والمراجـع

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم:**

❖ الإتقان في علوم القران، جلال الدين السيوطي،(ت 911هـ)، تحقيق، سعيد المندوب، دار الفكر ط1، بيروت، 1416هـ - 1996م.

❖ أساليب تحليل النصوص ، محمد خليل الرفاعي، وفلك صبيرة، ومحمد علي حبش، منشورات الجامعة الافتراضية السورية، دط. 1442هـ -2020م.

❖ استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، ليبيا ، 1424هـ 2004م.

❖ أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق، عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، ط2، القاهرة 1398هـ 1978م.

❖ أسماء سور القرآن الكريم ونظرة في بعض آياته، علي خليفة جابر، ط1،النجف الأشرف، 1443هـ2022م.

❖ الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف إستيتية دار وائل للنشر والتوزيع، ط1، الأردن2003م.

❖ أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط2، بيروت،1420هـ 2000م.

❖ أطلس أصوات اللغة العربية ،وفاء محمّد البيه، دار الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط1 مصر 1414هـ، 1994م.

❖ الإعجاز البياني في القرآن، صالح عبدالله الشثري، الموسوعة القرآنية، د.ط، السعودية، 2011م1432هـ.

❖ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني،(ت403هـ)، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، ط5، مصر ، 1997م.

❖ إعجاز سورة الكوثر، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق حامد الخفاف، دار البلاغة ،ط1، بيروت، 1411هـ -1991م .

- الاعلام، خير الدين الزركلي، المطبعة العربية، ط1، مصر1347هـ 1929م.
- الأعمال الكاملة، الشيخ محمد عبده، تحقيق الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 1428هـ - 2008م.
- الأمالي، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين المعروف بالشيخ الصدوق،(ت381هـ)، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية، دار مؤسسة البعثة للطباعة والنشر، ط1، قم المقدسة، 1417هـ.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار الأميرة للطباعة والنشر، ط2، بيروت لبنان ، 2009م.
- الإنسان والقرآن وجهًا لوجه(التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، أحميدة النيفر، دار الفكر المعاصر،ط1، بيروت، 1421هـ 2000م.
- بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي،(ت1070هـ)، دار مؤسسة الوفاء، ط2، بيروت ، 1403هـ 1983م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1431هـ 2010م .
- بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، محمود رجبي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط1، بيروت،2007م.
- البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني،(ت1186هـ)، دار الأعلمي، ط2، بيروت لبنان،1427هـ 2006م.
- بصائر الدرجات في فضائل آل محمد، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فرُّوخ الصَّفار القمّي، (ت290هـ)، تحقيق ميرزا محمد التبريزي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المُرعشى النجفي، د.ط، قم المقدسة،1409هـ.
- البنى التصورية واللسانيات المعرفية في القرآن الكريم ، بوشعيب راغين، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 1432هـ 2011م.

- البيان في تفسير القرآن، السيد ابو القاسم الموسوي الخوئي، دار انوار الهدى، ط8، 1401هـ 1981م.
- تاج العروس في جواهر القاموس، محب الدين محمد مرتضى الواسطي الزبيدي، تحقيق علي شبري، دار الفكر، لبنان، 2005م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، ط1، تونس1984م.
- التحقيق في منهجية تفسير القرآن بالقرآن في تفسير الميزان، السيد جعفر سيّدان، ترجمة السيد فاضل الرضوي، دار الولاية للنشر، ط1، مشهد، 1435هـ 2014م.
- تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، محمّد مفتاح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط3، بيروت، 1412هـ 1992م.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ط1، القاهرة، 2011م.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجمعات، ط2، 2011م.
- تحليل النصّ الأدبي بين النظرية والتطبيق، عبد الجواد محمد المحص، دار الكتب، د.ط، الاسكندرية، 2004م.
- تحليل النص الأدبي ثلاثة مداخل نقدية، إبراهيم أحمد ملحم، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2016م.
- التصوّر اللغوي عند علماء أصول الفقه، السيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، د.ط، مصر، 1996م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط17، القاهرة، 1425هـ 2004م.
- التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبدالله محمد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط1، دمشق، 1426هـ2006م.
- التفسير الإسلامي ومناهجه، الشيخ الدكتور علي جابر، دار الصفوة، ط، بيروت، 1437هـ 2017م.

- ❖ التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، ط1، مشهد، 2001م.
- ❖ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، السعودية، 1420هـ 1999م.
- ❖ تفسير القرآن، محي الدين ابن عربي، دار مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط1، بيروت، 1439هـ 2018م.
- ❖ التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ، ط1،دار الفكر العربي، القاهرة، 1390هـ1970م.
- ❖ تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، دار مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، مصر، 1365هـ 1946م.
- ❖ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة الزحيلي (ت1436هـ)، دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، 1418هـ 1998م.
- ❖ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمّد السيد طنطاوي، دار النهضة، ط1، مصر، 1418هـ 1998م.
- ❖ تفسير جزء عمَّ ، الأستاذ الإمام مُحمّد عبده ، الجمعية الخيرية الإسلامية ، ط3، مصر،1341هـ .
- ❖ تفسير سورة الكوثر، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، ط1، بيروت،1419هـ 1999م.
- ❖ التفسير والتفاسير الحديثة، بهاء الدين خرّمشاه، تحقيق عصام حسين، دار الروضة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1991م.
- ❖ التلقّي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، مراد حسن فطوم، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، د.ط، دمشق، 2013م.

❖ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري،(ت310هـ)، تحقيق عبدالله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، مصر، 1422هـ 2001م.

❖ جماليات التّلقي- المرجعيات المعرفية والآليات الاجرائية، المسعود قاسم، عالم الكتب الحديث، ط1، الاردن،1444هـ 2019م.

❖ جماليات الخطاب في النص القرآني، الدكتور لطفي فكري محمد الجودي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1435هـ 2014م.

❖ حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ،تحقيق،(ت685هـ)، الشيخ عبد الرزاق المهدي، دار صادر بيروت، د.ت.

❖ الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، الدكتورة خلود العُموش، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 1429هـ 2008م .

❖ روح المعاني في تفسير القرآن وسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الالوسي البغدادي،(ت1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت، 1415هـ1994م.

❖ السراج المنير في بيان نكات التفسير، الشيخ حبيب الكاظمي، دار نور المعارف للثقافة والتطوير، ط1، مصر،1436هـ2015م

❖ سلطة النصّ قراءة في توظيف النصّ الديني، عبد الهادي عبد الرحمن، دار ابن سينا للنشر، ط1، الاسكندرية،1998م.

❖ سؤال النصّ، أسئلة القراءة، د.خالد سليكي، مطبعة دار المناهل، دط، المغرب، 2008م.

❖ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية ،ط2، قم المقدسة، 1967م.

- الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان، علي الأوسي، دار سبهر، ط1، طهران، 1405هـ 1985م.
- عتبات النصّ: البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، الدار البيضاء، ط1416،1هـ 1996م.
- علم الأصوات وتكامل المعارف، مجموعة مؤلفين ،عالم الكتب الحديث ، دار اربد، ط1، الأردن، 2018هـ 1439م.
- علم التفسير، محمد حسين الذهبي، دار المعارف، د.ط، القاهرة، د.ت.
- علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بن سالم بن بازمول، ط1، السعودية 1423هـ -2002م.
- العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، محمد بازي، دار الأمان،ط1، الجزائر، 2011م.
- العنوان وسيميوطيقا الاتصال الادبي، محمد فكري الجزار ، دط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر القاهرة ،1998م.
- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، الدكتور محمد الصادقي، دار الأميرة، دط، د.ت.
- فعل القراءة واشكالية التواصل الأدبي: الأستاذ محمّد خرماش والأستاذ المصطفى عمراني، عالم الكتب الحديث دار اربد، ط1، الأردن، 1442هـ -2020م.
- الفكر النقدي الأدبي المعاصر، د. حميد لحمداني ، دار مطبعة أنفو-برانت، ط3، المغرب، 2014م.
- فلسفة القراءة واشكالية المعنى، حبيب مونسي، دار الغرب للنشر والتوزيع ،د.ط، الجزائر، 1420هـ 200م.
- فهم القرآن الحكيم(التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)، محمد جابر العابدي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت،2008م.

- القراءات الجديدة للقرآن الحكيم قراءة محمد عابد الجابري، محمد كنفودي، دار افريقيا الشرق، د.ط ، 2016م.
- قراءة النصّ مقدّمة تاريخية، عبد الرحيم الكردي ، دار مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 1429هـ 2008م.
- قراءة النصّ وجماليات التلقّي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، ط1، مصر، 1417هـ 1996م.
- قراءة النصّ وجماليات التلقي، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، ط1، مصر، 1996م.
- القراءة، فانسون جوف، ترجمة محمد آيت منعم وشكير نصر الدين، دار رؤية للنشر والتوزيع،ط1، القاهرة،2016م.
- القرآن في مسار تطوّره في تحليل البنية اللفظيّة والموضوعيّة ، مهدي بازركان، ترجمة كمال السيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، ط5، بيروت، دت.
- قضية التلقّي في النقد العربي القديم، د فاطمة البركي، دار العالم العربي، ط1، دبي – الامارات،2006م.
- لباب النقول في أسباب النزول ،عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد السيوطي ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت ،1422هـ -2002م .
- اللغة العربية معناها ومبناها، الدكتور تمام حسّان، دار الثقافة، ط1، المغرب، 1994م.
- مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني ،تحقيق جان عبدالله توما ،ط2، بيروت 1425هـ -2005م .
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط1،مصر، 1376هـ 1957م.
- محمد عبده قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، محمد الحداد، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، بيروت، 2020م.
- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1407هـ 1987م.

- مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف، دار البيان للطباعة والنشر، د.ط، القاهرة،2003م.
- المدخل إلى تاريخ التفسير والمفسرون، حسين علوي مهر، ترجمة ونشر دار المصطفى، دط، قم المقدسة، 1392هـ.
- مذاهب التفسير الإسلامي، اجنتس جولد تسيهر، ترجمة عبد الحليم النجار، دار اقرأ، ط5، بيروت ،1413هـ -1992م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت، 2007م.
- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمّد سمير نجيب اللبدي ، دار مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1405هـ1985م.
- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد ابو زيد، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2014م.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، ط1، مصر، دت.
- منّة المنان في الدفاع عن القرآن، السيد محمد الصدر، دار النجوى، ط1، بيروت ،د.ت.
- المُنصف -شرح الإمام أبي عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري، تأليف أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق، إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط1، مصر، 1373هـ 1954م.
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الاعلمي، ط1، بيروت،1417هـ 1997م.
- النصّ القرآني وآفاق الكتابة، أدونيس، دار الكتاب العربي، دط، بيروت، دت.
- النصّ وتفاعل المتلقّي في الخطاب الأدبي عند المعري، حميد سمير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
- النص وتفاعل المتلقّي في الخطاب الأدبي عند المعري، حميد سمير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.

❖ نظريات القراءة في النقد الأدبي، جميل حمداوي، دار الريف للنشر، ط2، المغرب، 2020م.
❖ نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، عبد الناصر حسن محمد، دار المكتب المصري للنشر والتوزيع، د.ط، القاهرة، د.ت.
❖ النقد الأدبي، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، القاهرة، 2012م.

الرسائل والأطاريح:

❖ تلقي النصّ القرآني في دراسات المحدثين –سورة الفاتحة مثالًا، علي جعفر، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور علي محمد ياسين، جامعة كربلاء، كلية العلوم الاسلامية.
❖ التلقّي في القرآن الكريم السور المكية انموذجًا، هدى عبد العزيز علي، اطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية التربية ،2005م.
❖ مستويات التلقّي للخطاب القرآني عند المفسرين، ايمان طالب عبد زيد الموسوي، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الفقه، 2011م.

المجلات و الدوريات:

❖ الأصول العامة لتحليل النص القرآني، كاصد ياسر الزيدي، مجلة العرب، العدد الأخير، 1427هـ -2006م.
❖ تأويل القرآن سلطة القارئ أم سلطة النصّ، حمزة فاضل يوسف، جامعة القادسية، العددان(1-2) ، المجلد 7، 2008م.
❖ تواصلية التلقّي في النصّ القرآني، د كلثوم عامر شخير، جامعة ذي قار، كلية العلوم الإسلامية، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد(39) 1441هـ 2019م.
❖ سيميائية العنوان في سورة الكوثر، خالد كاظم حميدي ، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد 35، 2014م.

❖ شعرية الرواية، علي جعفر العلّاق، علامات في النقد، العدد(23) المجلد السادس، 1417هـ-1997م.

❖ مجلة الأقلام، الممارسة النقدية من النصّ إلى القارئ مدخل أوّلي من بعض موجّهات القراءة، حاتم الصكر، العدد 11-12، تشرين الثاني ـ كانون الأول 1993.

❖ المعاصرة القرآنية رؤية على ضوء المدرسة الوجودية، جواد علي كسار، مجلة المنهاج، العدد 32، 1424هـ 2004م.

❖ مفهومات نظرية القراءة والتلقّي، خالد علي مصطفى، ربى عبد الرضا عبد الرزاق، مجلة ديالى، العدد(69)،2016م.

شبكة المعلومات الدولية:

❖ التعسف وسوء الفهم للنصِّ القرآني، حسين علي الهنداوي، محاضرة ألقيت في صالة اتحاد الكتاب العربي في رحاب كلية التربية في جامعة دمشق، على الموقع الآتي:http://noor-book.com/g7mehc

Abstract

This study, which is tagged ((the directives of reading in the Qur'anic text - a study in receiving Surat Al-Kawthar between the ancients and which means: How the modernists)) is based on a simple postulate, to understand the work of the textual directives surrounding the Qur'anic connotation when reading and understanding the study took it upon itself to examine those multiple readings that emerged from referring the word (Al-Kawthar) in this surah to each of the interpreter - the sample of the lesson - and based on the culture of the interpreter and his doctrine, which had the largest role in investing the external directives represented by (the meaning of the text, the place of descentThis study was divided into three chapters, the first of which was entrusted with the task of introducing Surat Al-Kawthar by revealing everything related to it in order to familiarise it, because this task is the first task of receiving, while the second chapter dealt with the reading directions of the ancient interpreters, of whom we took a sample of covering the directions of interpretation and its It was also for the third chapter, which dealt with the extensions of these currents in the modern era, up to the results of this study, the most important of which are summarised as follows:

-All the texts, surahs and short or long phrases in the Holy Qur'an are included in the chapter of miracles, by which the Qur'an challenged the masters of eloquence and rhetoric to bring the like of it, and from that chapter is this surah, which is the shortest suras of the Holy Qur'an.

-The texts of the Holy Qur'an, including its short texts (the Kawthar Cross), formed a fertile field for interaction with multiple readings throughout different times, because this text includes the ability to

run out of, and from a renewed expressive and content energy throughout the ages embodied by interpretations and its movement that did not know stopping and annihilation.

-Surat Al-Kawthar confirmed that the mental activity of receiving it is an activity subject to many influences directed by the text to the recipient, who captures the existing references in the text according to his culture, awareness and nodal thought, which determines the paths of reading according to his dictates and cognitive controls for this trend.

Multiple readings with their external and internal directives are the product of a rich and endless text of its connotations, and any of these readings does not cancel its sister, because these readings complement each other until a total reading that is complemented by the sum of old and modern interpretive efforts.

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Kerbala – College of Islamic Sciences

The department of Arabic language

Reading directives in the Qur'anic text

A study in receiving Surat Al Kawthar between the ancients and the modernists

To the Council of the College of Islamic Sciences at the University of KerbalaIt is part of the requirements for obtaining A master's degree In the Language and Literature of the Qur'an

A letter submitted by the student

Ahmed Jasab Saeed

Supervised by

Prof. Dr.Ali Mohammed Yassin

AD1445 **AH 2023**